المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

أنا الجندى

تأليف: أودن فون هورفات

ترجمة وتقديم: حسن على محمود رمضان

1234

الإبداع القصصى

أنا الجندى

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

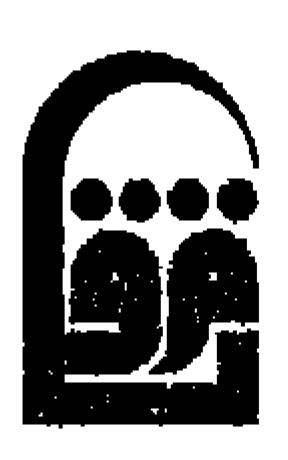
- العدد: ١٢٣٤
- أنا الجندى
- أودن فون هورفات
- حسن على محمود رمضان
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٨

هذه ترجمة رواية:
Ein Kind
unserer Zeit
von: Ödön von Horváth

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House، El Gezira، Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

أنا الجندى

تأليـــــــف: أودن فــون هــورفـــات
ترجمة وتقديم: حسن على محمود رمضان



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هورفات، أودن فون
أنا الجندى (رواية) تأليف: أودن فون هورفات، ترجمة وتقديم: حسن على محمود رمضان - ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨م.
١٦٨ص؛ ٢٠سم
١- القصص الألمانية
أ- رمضان، حسن على محمود (مترجم ومقدم)
ب- العنوان
٨٣٣

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٤٥١٤
الترقيم الدولى: 0 - 818 - 437 - 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الفهرس

مقدمة المترجم

لقد حاولت أن أخرج لجمهور المثقفين والمهتمين بالأدب العالمى قصة من قصص أديب نمساوى الجنسية، ينتمى إلى كل من المجر والنمسا وألمانيا، ولكنه لم يستطع أن يعيش فى ألمانيا بصورة رسمية؛ لكتاباته التى كانت مرفوضة من القائمين على الحكم فى ذاك الوقت، والتى ولأسباب كثيرة، منها ما يرجع إلى الظروف العالمية أو ظروف إقليمية، لم ترَ النور بصورة واضحة وجلية إلا بعد أن رحل بفترة زمنية كبيرة، فقد رحل الأديب النمساوى (أودن فون هورفات) فى عام ١٩٣٨ فى حادث سقوط جذع شجرة كبيرة عليه فى باريس، ولم تظهر أعماله وتجمع إلا فى مؤتمر كبير عنه فى أكتوبر عام ١٩٧١.

حصل (أودن فون هورفات) على جائزة (كِلَيسْت) فى الأدب عام ١٩٣١، بمساعدة الأديب (كارل تْسُوكْ - ماير) الذى قال عنه: "إن موهبته فى الكتابة من أقوى المواهب وإنه من أكثر الأذهان استنارة وأقوى الشخصيات تعبيرًا". وقد ذكر أيضًا أن رفض ألمانيا النازية للأديب (هورفات) كان بسبب الاستقامة والأخلاق التى كان يتمتع بها هذا الأديب. وكان يرتعد أمام الشر الذى كان ينتشر وينتصر يوميًا بلا استحياء فى عهد الرايخ الثالث.

ظهر ذلك جليًا فى هذه القصة التى بين أيدينا، وهو يدافع عن الأخلاق ويهاجم الحروب بين الشعوب، وتحديدًا للحصول على ثروات الآخرين وقتل الأبرياء من الأطفال والنساء وغيرهم.

ونادى أيضًا بإيقاظ الضمير الإنسانى معلنًا أن كل الناس بشر مهما اختلفت أعراقهم وأجناسهم. وهذا ما نتفق عليه الآن ونتطلع إلى مزيد من إزالة الحواجز بين البشر.

وقد كتب (هورفات) فى مواضيع كثيرة تنتقد المجتمع الألمانى فى زمن النازية والاشتراكية، منها على سبيل المثال: "حرب دون إعلان الحرب" و"إنهم لا يريدون الحرب" و"يحيا السلام" و"الدم والأرض" و"الأجناس" و"الشعب الذى لم يعد يبالى بالتفكير، وإنما بالطاعة العمياء"، وغيرها.

وقد كتب (هورفات) فى جرأة شديدة أن الحكومات هدفها أن يكون الشعب غبيًا، ولا توجد حكومة تهتم بأن يكون شعبها ذكيًّا؛ إذ إن كل الحكومات تعادى العقل والعقلاء؛ فهى تكون أكثر قوة بمقدار مراعاتها لغباء شعبها. وهذا ما دعا الكاتب إلى ترك ألمانيا والسفر إلى النمسا وبلاد أخرى. كانت باريس آخر محطة له، فقد سقط ميتًا بعد أن سقط عليه جذع شجرة أودى بحياته وهو فى شبابه، فقد مات (هورفات) عن سبعة وثلاثين عامًا.

وتعتبر هذه الرواية من روائع القصص؛ لأنها تتغلغل في الحالة الأخلاقية التي تسود العالم في هذا الزمن. وأوصى (هرمان هِسّه) صديقه (ألفريد كوبن) بالبحث عن هذه القصة وقراءتها.

يتميز أسلوب (هورفات) بالسهولة، ولكنه في الوقت نفسه يكشف عن الخبايا السياسية وأثرها في المجتمع.

أنا الجندي رواية "طفل عصرنا" وهذا هو العنوان الأصلي والذي استبدلته بعنوان أقرب للقصة والأحداث ألا وهو " أنا الجندي" وهي من أواخر ما كتب (هورفات).

ويحكي لنا البطل بدايته التي عاشها وهو عاطل حتى أنقذته الجندية من البؤس والشقاء فيقول:

"عندما تركت المدرسة أصبحت بلا عمل، وكنت أود أن أعمل في مطبعة؛ حيث إني أهوى الماكينات الكبيرة العملاقة التي تطبع الصحف، وتعمل في الصباح وفي منتصف النهار وفي المساء، بيد أنه لم يكن في وسعي فعل أي شيء. لم أستطع حتى أن أتعلم الطباعة في أي من ضواحي المدينة، فضلاً عن استحالة ذلك في وسط المدينة، حتى لكأنه خُيل إليَّ أن تلك الماكينات الكبيرة تقول لي وهي تبتسم: "آه إن لدينا من البشر أكثر مما نحتاج" ثم أردفت مبتسمة أيضًا: "أخرجنا من رأسك!"

وأصبحت بعد ذلك أستجدى الإحسان، بدأ من المؤسسات الحكومية وانتهاء ببعض من أعرفهم.

فإنه يسعدنى دومًا أن أنتظم مصفوفًا فى سريتى الآن فقط أصبح لوجودى معنى، بعد أن كنت قد يئست تمامًا مما ينبغى علىَّ فعله كى أبدأ حياتى الصغيرة. فقد كان العالم بدون ملامح والمستقبل ميتًا؛ حيث إنى قد شيعته لمثواه الأخير (واريته الثرى).

ومع أننى الآن إنسان محترم ومتزن، فإنى قد مررت بست سنوات عجاف بلغ فيهن اليأس مبلغه حتى إننى كنت أتخبط كريشة فى مهب الريح، وخلال الست سنوات المعتمة كان قلبى حزينًا دائمًا، وكانت حياتى مريرة والأوضاع تنتقل من سيئ إلى أسوأ ويتزايد شعورى بالمرارة.

والآن:

"منذ نصف عام تقريبًا تراءى لى مستقبلى عند مكان فرز المجندين الجدد (الكشف الطبى)؛ حيث نطق الرائد الطبيب قائلاً "لائق للتجنيد".

نعم فى هذه اللحظة ربت المستقبل على كتفى، وما زلت أشعر به حتى الآن.

ثم تتوالى الأحداث.

الفصل الأول

أب لكل شىء

أنا جندى، وسعيد لكونى جنديًا

عندما يغطى الصقيع المروج، ويأتى الضباب من الغابات، عندما ينضج القمح، ويلمع المنجل، عندما تمطر السماء أو تثلج، وعندما تضحك الشمس ليلاً أو نهارًا؛ فإنه يسعدنى دومًا أن أنتظم مصفوفًا فى سريتى الآن فقط أصبح لوجودى معنى، بعد أن كنت قد يئست تمامًا مما ينبغى علىَّ فعله كى أبدأ حياتى الصغيرة. فقد كان العالم بدون ملامح والمستقبل ميتًا؛ حيث إنى قد شيعته لمثواه الأخير (واريته الثرى).

ولكنى الآن أمتلك مستقبلى، فقد أحييته من قبره، ولن أتركه أبدًا ليضيع منى ثانية.

فمنذ نصف عام تقريبًا تراءى لى مستقبلى عند مكان فرز المجندين الجدد (الكشف الطبى)؛ حيث نطق الرائد الطبيب قائلاً: " لائق للتجنيد".

نعم فى هذه اللحظة ربت المستقبل على كتفى، وما زلت أشعر به حتى الآن. وبعد ثلاثة شهور لمع فوق ياقتى الخالية نجمة، نعم

نجمة فضية؛ وذلك لأننى كنت أفضل من يقوم بالتصويب فى سريتى، حيث إنى كنت أصيب الهدف الرئيسى فى كل مرة وعليه فقد نلت رتبة "عريف" وهذا شىء فريد له خصوصية لمن هم مثلى، لأنى كنت أصغر أفراد سريتى سنًا. وهذا ما يوحى به مظهرى أيضًا، لكنى أشعر من داخلى أننى أكبر من ذلك بكثير. وسبب ذلك تحديدًا هى تلك السنوات التى قضيتها دون عمل.

فعندما تركت المدرسة أصبحت بلا عمل. وكنت أود أن أعمل فى مطبعة؛ حيث إنى أهوى تلك الماكينات الكبيرة العملاقة التى تطبع الصحف، وتعمل فى الصباح وفى منتصف النهار وفى المساء، بيد أنه لم يكن فى وسعى فعل أى شىء .

لم أستطع حتى أن أتعلم الطباعة فى أى من ضواحى المدينة، فضلاً عن استحالة ذلك فى وسط المدينة، حتى لكأنه خُيل إلىَّ أن تلك الماكينات الكبيرة تقول لى وهى تبتسم: " آه! إن لدينا من البشر أكثر مما نحتاج" ثم أردفت مبتسمة أيضًا: "أخرجنا من رأسك!".

وحسنًا قد فعلت، فقد طردتها تمامًا من رأسى، ومن قلبى أيضًا؛ لأن لكل امرئ عزة نفس، ولو كان من الكلاب التى لا تعمل.

وأنتم أيضًا اخرجوا من رأسى، هيا أيتها التروس الوضيعة (الحقيرة)، والمطابع، وأنت أيتها المكابس، وناقلات الطاقة، هيا اخرجوا!

وأصبحت بعد ذلك أستجدى الإحسان، بدأً من المؤسسات الحكومية وانتهاءً ببعض من أعرفهم.

كنت أصطف فى طابور طويل على باب أحد هؤلاء القديسين للحصول على الحساء. وفوق سطح الكنيسة اصطفت ستة تماثيل حجرية، نعم ستة من القديسين. خمسة رجال وامرأة. وشرعت فى تناول الحساء بالملعقة.

وها هو الثلج يتساقط، ولكن هيهات فإن هؤلاء القديسين يحتمون بقبعات بيضاء عالية، أما أنا فليست لدى قبعة وأقف هكذا فى الظل. وها هى الشمس قد بدأت فى إرسال ضوئها لفترة أطول وأصبحت الرياح أدفأ، وأنا أتناول الحساء.

وبالأمس رأيت أول بادرة خضراء، وها هى الأشجار تخضر أوراقها، والنساء تخففن من ملابسهن وارتدين الملابس الشفافة، وأنا أيضًا أصبحت مثلهن ويظهر من جسمى بعضه؛ لأن سترتى تمزقت، ولم يكن سروالى أفضل منها حالاً وأصبح الناس يبتعدون عنى فى الطرقات، كثير من الأفكار تدور فى رأسى وتغدو وتروح بين الفينة والأخرى. ومع كل ملعقة حساء يزداد الطعم مرارة ولا أشعر بطعم الحساء، وفجأة توقفت ووضعت الطبق الصفيح على الأرض الحجرية فنصف الطبق ما زال ممتلئًا ولكن كفى! لم أكن قد شبعت، ولكنى لا أريد أكثر من ذلك، نعم لا أريد أكثر من ذلك!

هؤلاء القديسون فوق سطح الكنيسة يرسلون بصرهم إلى الهواء الأزرق. لا، لا أريد المزيد من هذا الحساء! الماء نفسه يومًا بعد يوم!

مجرد رؤيتي لحساء الشحاذة هذا امتهان لي. لقد أصبح بالنسبة لي سيئًا أن أرى نفسي شحاذًا. وغدوت أقول لنفسي: "أسكب هذا الحساء بعيدًا. نعم أسكبه في مقلب القمامة!". القديسون ينظرون إليَّ نظرة لوم وعتاب. تبًّا لكم! لا تحملقوا فيَّ هكذا من عل، ولكن يجدر بكم أن تساعدوني هنا بالأسفل. فأنا بحاجة إلى سترة جديدة وسروال سليم وحساء آخر.

التغيير يا سادة! التغيير!"إذن السرقة خير من الشحاذة" وبمثل هذا المنطق فكر كثير ممن كان يقف في الطابور صغيرًا كان أو كبيرًا، فلم يكن ذلك أسوأ ما في الأمر.

نعم لقد سرقنا كثيرًا، غالبًا مواد غذائية، ولكن أحيانًا ما كان أيضًا تبغًا وسجائر أو خمرًا وبيرة.

غالبًا ما كنا نرتاد الحدائق الصيفية الصغيرة عندما يقترب أو يحل فصل الشتاء، حين يقبع ذوو الأملاك المحظوظون في بيوتهم ينعمون ويجلسون في المطابخ الدافئة.

مرتين كاد أن يقبض عليَّ، ولكني كنت أهرب في اللحظات الأخيرة: ولو كان البوليس قد وصل إليَّ، لكنت الآن من أرباب

السوابق ولكن الثلج كان صديقًا لى ولهذا بقيت صحيفتى الجنائية (أوراقى) ناصعة البياض، ولا يلقى الماضى بظلاله على أوراقى.

ومع أننى الآن إنسان محترم ومتزن، فقد مررت بست سنوات عجاف بلغ فيهن اليأس مبلغه حتى إننى كنت أتخبط كريشة فى مهب الريح، وخلال الست سنوات المعتمة كان قلبى حزينًا دائمًا، وكانت حياتى مريرة والأوضاع تنتقل من سيئ إلى أسوأ ويتزايد شعورى بالمرارة.

أما الآن فإنى سعيد، فأنا الآن قد عرفت لمن أنتمى. الآن لم يعد يتملكنى أى شعور بالخوف، ولا أفكر هل سيكون لدى طعام للغد أم لا.

عندما يتفتق حذائى سوف يقومون بإصلاحه. وعندما يلحق الضرر بحلتى سوف أحصل على واحدة أخرى جديدة. وعندما يحل الشتاء سوف أحصل على معاطف، نعم معاطف كبيرة للشتاء. حقًا لقد رأيتها بالفعل.

لم أعد الآن فى حاجة ماسة لأن يتعاطف الثليج معى؛ فكل شيء الآن مستقر، وأصبحت الأمور تسير فى نظام وعلى ما يرام.

وداعًا للمعاناة اليومية ولهموم حياتكم ومنغصاتها.

من الآن فصاعدًا أصبح يوجد أحد بجانبى يمينًا وشمالاً، وليلاً ونهارًا! ثم صاح القائد: "اجمع!"

وها نحن نسير فى صف واحد فى أرض الطابور فى أرض الثكنات الكبيرة جدًا حتى لكأنها مثل مدينة كاملة، لا يستطيع أن يحيطها المرء ولا أن يحصيها على مرمى البصر.

نحن سلاح المشاة بأسلحتنا الثقيلة والخفيفة، ومزودون بالمركبات، ولكنى لم أزود بإحدى تلك المركبات.

يستعرض الرئيس أمامنا حرس الشرف، ونحن نتتبعه بأبصارنا، وعندما يمر عند الصف الثالث ننتبه وننظر أمامنا مشدودين منتصبى القامة. هكذا تعلمنا "لابد من النظام"، ونحن نحب النظام، فهو بالنسبة لنا الجنة والملاذ بعد حياة البطالة المضطربة اللاآمنة. نحن أيضًا نحب رئيسنا، فهو رجل مهذب وعادل وجاد، إنه أب نموذجى.

كل يوم يسير أمامنا ويتأكد بنفسه من أن كل شىء مضبوط. لا ينظر فقط على أزرار البدل هل هى نظيفة وتلمع، بل يتعدى هذا لينظر إلى التسليح، ما أقصده هو التسليح الروحى، هل أرواحنا مسلحة؟! هذا ما نشعر به جميعًا تجاه الرجل. وهذا نادر، ولم يره أحد منا يضحك. وأحيانًا ما نحزن أو نأسف لحاله، ولكن لا يستطيع أحد أن يغيره. ولكننا جميعًا نود أن نصبح مثله. وكلنا يريد أن يصبح هذا الرجل. وها هو الملازم الأول طراز آخر من البشر. إنه عادل أيضًا، ولكنه سريع الغضب، قد يثور لأتفه الأسباب. أى سبب،

وغالبًا ما يصرخ فينا دون سبب. بيد أننا لا نغضب منه أبدًا. لقد كان دائمًا عصبيًّا، لأنه كثيرًا ما يرهق نفسه فى العمل. إنه يريد أن يلتحق بأركان حرب الجيش، ولذا فهو يذاكر ليلاً ونهارًا. ودائمًا ما نجده ممسكًا بكتاب فى يده، يقرأ فى تخصصه.

وهناك ملازم آخر، ولكن أقل ما يوصف به أنه كلب صغير إذا ما قورن بالأول؛ فهو يكبرنا بقليل، أى أنه يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا تقريبًا. وهو يميل أيضًا للصياح وإلقاء الأوامر أيضًا، ولكنه لم يجرؤ على فعل شىء. ولكننا نحبه على الرغم من ذلك؛ لأنه رياضى رائع. فهو أفضل العدائين، وله أسلوب متميز. وتتشابه العسكرية غالبًا مع الرياضة. بل يمكنك القول إن العسكرية أجمل رياضة؛ لأنها لا تدور حول الأرقام القياسية، ولكن تدور حول الشىء الأفضل والأعظم، إنه الوطن.

ولقد مرت علىَّ أوقات لم أكد أحب فيها وطنى؛ فقد كان يحكمه أُنَاس تجردوا من مشاعر حب الوطن، وسيطرت عليه قوى دولية غاشمة ظالمة. لم يكن لهم الفضل فى بقائى على قيد الحياة حتى الآن.

وليس يعنيهم أنى ما زلت أتمكن من السير على قدمى، أو أننى ما زلت على قيد الحياة كما لم يمنعهم أيضًا أن يكون لى وطن، مثل هذا لم يقع فى دائرة اهتمامهم. نعم وطن قوى وعظيم، أصبح

صورة ومثالاً مضيئًا للعالم أجمع، ويمكنه أن يسود العالم أجمع. إننى أحب بل أعشق وطنى منذ أن استعاد شرفه؛ فبهذا قد عاد لى شرفى أيضًا.

الآن لا يجب علىَّ أن أشحذ ولا أحتاج لأن أسرق بعد اليوم، أصبح اليوم كل شىء مختلفًا عن ذى قبل. ولسوف يصبح شيئًا آخر. وأنا أؤكد أننا سننتصر فى حربنا القادمة.

كل قادتنا يتحدثون عن السلام فى الوقت نفسه الذى أتغامز على هذا أنا و زملائى. حقًّا إن كل قادتنا محنكون فطناء فهم يداهنون الآخرين؛ لأنهم يتقنون فن المداهنة (المراء) كما لم يجده أحد مثلهم. فلا حياة دون مراء بل قل كذب.

أما نحن فما علينا إلا أن نكون دائمًا على أهبة الاستعداد. كل يوم ننتظم فى طابور عسكرى ونسير إلى أن نصل إلى خارج البوابة بالخطوة والإيقاع نفسهما. إننا نسير عبر المدينة.

المثقفون ينظرون إلينا بسعادة، ولكن هناك من لا ينظرون إلينا مطلقًا، وكأنهم غاضبون منا. هؤلاء فى الغالب من كبار السن، يشيحون بأبصارهم عنا فهم لا يهتمون بشىء. ولكننا نغضب ونحزن عندما يشيحون بأبصارهم عنا، أو يقفون فجأة خلال العرض دون سبب، فقط لكى لا يضطروا إلى رؤيتنا. لو أنهم نظروا إلينا وشاهدوا

عرضنا مرة، لو أنهم لاحظوا فقط كيف تنعكس صورتنا على زجاج العرض، قطعًا فسوف يستشيطون غضبًا من أنفسهم.

نعم إن الأمر يتعلق بسيادتكم ومجدكم، وبماضيكم البليد حينما كنتم مستعبدين. ولكنهم لن يبكوا علينا.

إنهم فقط يولون اهتمامهم لما لذَّ وطاب من الطعام، وإلى الكتب والمعارض. ولكن كلا! ستجدوننا أمامكم فى كل مكان.

سنواصل سيرنا عبر العرض. وأعلم جيدًا أننا لا نروق لكم ولا نعجبكم. فأنا أعرفكم جيدًا، ولكننا سنواصل سيرنا فى العرض.

أبى أيضًا يشبهكم كثيرًا. إنه يشيح بوجهه بعيدًا عندما يرانى فى العرض العسكرى، حيث إنه لا يتحمل أن يرانا نحن الجنود؛ لأنه يبغض صناعة الأسلحة. وكأن المشكلة الرئيسية للعالم هى هل يُسْمَح بالتكسب من صناعة الأسلحة أم لا؟ نعم يجوز التكسب منها ذلك إذا ما أخلص فى توريد المدافع الممتازة والذخيرة وكل الأسلحة المساعدة لم يعد وجودها مشكلة فى أيامنا هذه على الإطلاق؛ لأننا نعرف جيدًا أن أسمى ما فى حياة الإنسان هو الوطن. لا يوجد شىء يضاهيه فى سموه، وكل ما عداه فهو هراء أو على أحسن الحالات من الممكن أن تكون هناك أشياء بجانب الوطن توازيه.

عندما يكون الوطن بخير يكون كل فرد من أبنائه بخير. وعلى العكس من ذلك إذا ألم به مكروه فليس من الضرورى أن يتأثر كل

فرد من أبنائه بالسلب ولكن هؤلاء هم الحالات الاستثنائية، فإنهم لا ينتمون إلى بنيان الشعب النابض.

والوطن لا يكون بخير عندما يرعبه شيء، ولكن عندما يكون عنده سلاح حاد فتاك خاص به، ونحن هذا السلاح، وأنا أنتمي لهذا السلاح. ولكن هناك نوعًا من البشر لا يريدون أن يروا مثل هذه الروابط البديهية؛ بل إنهم لا يريدون رؤيتها على الإطلاق؛ لأنهم ما زالوا غارقين في عقائدهم البالية التي ترجع أصولها إلى القرن التاسع عشر، ووالدي أيضًا من هذه الفئة. حقًّا إنها فئة تعيسة حزينة. نوع من الجيوش المهزوم المغلوب على أمرها. إن والدي رجل مخطئ مخادع لنفسه. لقد وقع في الأسر لمدة ثلاث سنوات منذ بداية عام ١٩١٧ حتى نهاية عام ١٩١٩ حين رجع إلى وطنه. أنا نفسي ولدت في عام ١٩١٧، فأنا أنتمي إلى من يطلق عليهم "أطفال الحرب" (أي الذين ولدوا إبان فترة الحرب) ولكني بالطبع لا أستطيع تذكر شيئًا عن تلك الحرب العالمية. ولا أيضًا السنوات التي تلتها بعد ذلك وتسمى سنوات ما بعد الحرب.

ولذلك فإن الأمر يختلط عليَّ أحيانًا. ذاكرتي الحقيقية تبدأ منذ عام ١٩٢٣ تقريبًا. والدي كان يعمل نادلاً يعتمد على البقشيش. ويدعي والدي أن وظيفته انحطت بسبب الحرب؛ أي أن مكانته الاجتماعية قد تدنت بسبب الحرب؛ لأنه كان يعمل في وظيفة عالية محترمة منذ عام ١٩١٤، بينما يعمل الآن في مصنع متوسط الحال

فى ضاحية من ضواحى المدينة، ثم بدأت قدماه تتثاقل وبدأ يعرج وبالتحديد بعد فترة الأسر. والنادل الأعرج لا يستطيع العمل فى أحد المحال الفاخرة. ولكننى وعلى الرغم من مأساته تلك، أري أنه لا يملك الحق فى أن يسب الحرب؛ فالحرب هى قانون الطبيعة. ووالدى إنسان متذمر بطبعه، فعندما كنت أعيش معه فى حجرته كنا نتشاجر يوميًا. ودائمًا ما يسب الأغنياء ومع ذلك تهفو نفسه لأن يكون واحدًا منهم، وتتوق نفسه أن ينحنى أمامهم طمعًا فى البقشيش. نعم إنه رجل مخادع وهو مستمر فى خداعه هذا؛ لذا فأنا لا أحبه. ولو لم يكن هو والدى بالصدفة لكنت الآن أتسأل: من هذا الشخص المعارض المتناقض؟

قلت له ذات مرة: "ألا تخاف من الحرب القادمة، فإن العمر يتقدم بك؟" بقى صامتًا، هادئًا بعض الوقت، ونظر إلىَّ كما لو كان يريد أن يتذكر شيئًا ثم أردفت قائلاً:" لن تكون على قيد الحياة فى الحرب القادمة". ولكنه بقى هادئًا ورمانى فجأة بنظرة خبيثة، كصياد ينصب شركًا لصيده. ثم بدأ فى الصراخ قائلاً: "ما دام الأمر كذلك فاذهب إذن إلى حربك؟" ثم علا صراخه بشدة وقال: "اذهب وتعرف عليها، مع تحياتى الخالصة للحرب! اذهب لو كنت تريد! اذهب واسقط وستنهزم!

كان هذا قبل ثلاث سنوات. إننى ما زلت أسمعه يصرخ وأتذكر صياحه، وأرى نفسى أقف فى بهو السلم، ثم توقفت ورجعت.

لقد نسيت قلمى الرصاص، كنت أريد الذهاب إلى إدارة التحرير؛ حيث تُعلّق الجرائد مع الإعلانات فى لوحة الإعلانات الصغيرة، لعلى أجد عملاً، أى عمل فى أى مكان، فى ذلك الوقت كنت أؤمن بالأساطير.

وعندما عدت ثانية ودخلت الحجرة مرة أخرى، وجدت والدى واقفًا ينظر من النافذة. لقد كان يوم عطلته الأسبوعية، ثم نظر إلىّ نظرة خاطفة قصيرة. فقلت له: لقد نسيت قلمى الرصاص، ثم أومأ برأسه ونظر ثانية من النافذة.

بعدها سألت نفسى: ما هذه النظرة؟ هل كان يبكى؟ ثم خرجت مسرعًا. لا شىء يهمك فإن لديك الأسباب لذلك؛ لأن جيلك يتحمل الذنب فيما أعانيه الآن. (فى ذلك الوقت كنت عاطلاً وبلا مستقبل). أجيال آبائنا لديهم أفكار حمقاء عن حقوق الشعوب، والسلام الأبدى السلام الدائم، ولم يستوعبوا حتى الآن فهم أنه فى عالم الحيوان تأكل الحيوانات بعضها بعضًا. فليس هناك حق بدون قوة تحميه. لا ينبغى على المرء أن يفكر فقط، بل عليه أن يتبع ذلك بالعمل.

الحرب هى أب لكل شىء.

لم تعد لى صلة بوالدى. لم أعد أحتمل تلك الدموع الأزلية. ودائمًا ما كنا نسمع تلك العبارة: "ما أجمل أيام ما قبل الحرب، كانت جميلة".

عندما كنت أسمع هذا يصيبينى الذعر، فأنا لم يكن يعجبنى ذلك الوقت الجميل ولا أستطيع تخيل ذلك الزمن إلا كما تصورها الصور القديمة.

لقد كنت تملك شقة مكونة من ثلاث غرف، وكنت أعزب كما كنت فتى محبًّا للحياة أى فى الوقت الذى كنتم تطلقون عليه "حياة العزوبية الماجنة"؛ حيث تقضون أوقاتكم مع النساء وفى لعب الورق. كل العالم كان يملك المال. لقد كان وقت الكسل والخمول. أنا أكره ذلك. كل فرد كان يستطيع التكسب ويجد العمل، لم يجع أحد، ولم يكن لدى الناس قلق. زمن موحش. أنا أبغض الحياة المريحة.

إلى الأمام فقط إلى الأمام. نتحرك! ونتحرك! نحن نندفع إلى الأمام ولا أحد يستطيع أن يقف فى طريقنا؛ ليمنعنا من التقدم، لا الحقول، ولا الغابات، ولا الأسوار، كل ذلك سنحطمه فى طريقنا، سنتقدم إلى الأمام، إلى المرتفعات، وسنحصن أنفسنا لنحكم السيطرة على الشوارع التى نسيطر عليها.

فى بادئ الأمر يكون ذلك مجرد مناورات، ثم لا تلبث أن نسلك مسلك الجد وتتضح آمارتها.

أما حرب الغد التى ستأتى فسوف تكون مختلفة تمامًا غير تلك الحرب العالمية، ستكون أكبر، وأشد ضراوة، وأكثر وحشية، حربًا ضروسًا، وسوف تحسم بهذا أو ذاك إما لى أو لك. نحن نرى الحقيقة

رأى العين ولا نفسح لها طريقًا، فنحن إذن نخادع أنفسنا. الآن تطلق المدافع، وفى الأطراف اللامعة البعيدة. يكاد المرء لا يسمعها. إنها تنطلق بلا هدف. وفى الشارع أسفل منا، وعلى الطريق تظهر فتاتان تركبان الدراجات. إنهما لا تروننا، لقد توقفتا فجأة وأخذتا تنظران حوليهما. وبعد ذلك ذهبت واحدة خلف إحدى الشجيرات، وقعدت خلفها القرفصاء. ابتسمنا بشماتة، وكذلك فعل الملازم من خلفنا لقد يبتسم أيضًا.

الملازم نظر فى المنظار. الآن تمرق فى السماء طائرة تحلق فوق رؤوسنا. الفتاة لم تنزعج، ولكنها نظرت فى غضب. كانت الطائرة تطير على ارتفاع عال، والطيار لا يستطيع أن يراها. وهى تعرف ذلك. وكانت لا تفكر فينا، ودائمًا كنا نحن سلاح المشاة الذى يحسم الحرب. وليس الطيار أبدًا. مع أن المرء يتكلم عنهم كثيرًا وعنا قليلاً، وهم يرتدون زيًّا منمقًا وسوف نرى هل يقومون بما تدربوا عليه؟ إنهم يعتقدون أنهم قاموا بهدم دولة وتحويلها إلى أطلال. ونحن حرس سلاح المشاة نذهب لنحتل تلك الأطلال دون أى مخاطرة. سوف يرون أننا لسنا زائدين عن الحاجة أو مجرد صف ثان. كلا، فأنا لا أحب الطيارين، إنهم فقط مجموعة متغطرسة متكبرة، لا يشكلون أى خطورة، ورجال البوليس أفضل. انتظروا! والنساء أيضًا حمقاوات لأنهن يردن فقط الطيارين، هم أعلى

ما يطمحون إليه. حتى البنتين اللتين فى الشارع تنظران إلى الطيار، وتشوحان له بأيديهما. البقر يريد أن يرقص مع الطيارين.

مهلاً لا تلوحا إليهم أيتها الحيوانات؛ فهم ينظرون إليكما باستعلاء، كما إنكما لن تستطيعا الطيران. نعم نحن نبتلع الأتربة ونسيرعبر القاذورات، ولكننا نحرص على أن تمتلئ السماء بالقاذورات والأتربة. فلا خوف إذن!

صرخ الملازم :"يا إلهى"، ماذا حدث؟

إنها تندفع من السماء إلى هنا. أيها الطيار، إنه يهوى إلى أسفل. ثم قال الشاويش وهو ينظر فى المنظار. إنها تهوى لقد فقدت جناحها الأيسر، ثم تندفع ساقطة، تندفع مع سحابة دخانية. تزداد سرعة سقوطها. ولقد طرأ على خاطرى أن هذا عجيب، ألم أقل قبل قليل: إنها ستسقط؟

قال الملازم "لقد ضاعوا" وقفزنا جميعًا، ثم صرخ الشاويش: "انبطحوا"، "انبطحوا".

الآن ترقد نعوش الطيارين الثلاثة على عربة المدفع، نعوش الطيار والمراقب وعامل اللاسلكى، ثم جاء القائد وقال: "إلى صلاة الجنازة". كنا نطأطئ رؤسنا ولكننا لم نصل.

فأنا أعرف تمامًا أنه ليس من بيننا من يصلى. إننا نفعل ذلك من باب الشكليات المحضة.

فى العرض تتقدم البنادق والطبول تدق، تعزف الموسيقى من أجل الرفقاء. ولم يعد يقال لنا: "حب عدوك!" فما يقال لنا الآن "اكره عدوك"؛ فبالحب سوف ننتقل إلى السماء، وبالكره سوف ننتصر؛ نحن لا نحتاج إلى بقاء الأزلى والخلود العلوى. عرفنا الآن أن الفرد لا يساوى شيئًا؛ لأنه مجرد عضو فى طابور العرض. فبالنسبة لنا هناك خلود واحد، وهو حياة شعبنا. وواجب واحد، وهو الموت من أجل حياة شعبنا. وما عدا ذلك لا يهم ولا يساوى شيئًا.

الآن نخطو إلى الأمام منتصبى القامة، ونحارب رجلاً لرجل.

أنا التاسع من جهة اليمين بحسب الطويل. أطولنا يبلغ طوله ثمانية وثمانين ومائة سنتيمتر. وأقصرنا طوله ستة وخمسين ومائة سنتيمتر، وأنا طولى أربعة وسبعون ومائة سنتيمتر. هذا رائع جدًا فلست طويلاً ولا قصيرًا.

وأنا معجب بنفسى وبشكلى. نعم، إن مظهرى يروق لى تمامًا.

الفصل الثانى

القصر الملعون

اليوم هو يوم الأحد

ولدينا فراغ من الساعة الثانية حتى الساعة العاشرة، ولم يبقَ شيء سوى الاستعداد. ولقد حصلت بالأمس على النجمة الثانية. واليوم أخرج فى نزهة وسأخرج للمرة الأولى وعلى ياقتى تصطف نجمتان. وها هو فصل الربيع على الأبواب، وبالفعل بدأت أحس بقدومه، وأشم رائحته فى الهواء؛ حيث كنا ثلاثة: أنا واثنان من أصدقائى نرتدى القفازات البيضاء ونتحدث عن النساء. بيد أنى كنت قليل الكلام؛ حيث إنه كان من الأحرى أن أفكر فى شئونى.

من المعروف أن النساء شر لابد منه، ويحتاجها الرجل لإنجاب أكبر عدد ممكن من الأولاد ذوى الصحة الجيدة، يكونون فيما بعد نواة لأسر لها قيمة فى الوطن، وإلا فهم يخلفون المتاعب والقلق والفوضى. لا أستطيع أن أتحدث عنهم بصورة أفضل؛ فهن يجرين وراءك؛ لأنك مثقف وإذا توددت إليهن يتكبرن، ويقلن: "شاب أحمق"، فما زال حديث السن ويتصبب عرقًا خلف أذنيه أو أشياء من هذا القبيل؛ فإذا ما أتتك امرأة راضية النفس، سرعان ما تجد نفسك غير مقبل عليها تمامًا.

ولكم هى سعادة أى فتاة مرحة خفيفة الظل إذا ما أشار إليها رجل. وليس لديها الحق فى أن يساورها أى إحساس غير ذلك كالغيرة مثلاً، أو ما يسمى بعاطفة الأمومة؛ لأن خفة الظل ميزة للفتاة الشابة على أحسن تقدير. كما قد تجدهن حالمات يعشن عصر الرومانسية كل هذا شريطة أنهن جميلات، ولكن أيضًا الجميلات الرومانسيات الحالمات، وبخاصة صغيرات السن، يردن فقط شخصًا لديه مال. وهذه هى المشكلة بالفعل. وتوجهت إلى الصحبة الذكورية العزيزة، ومن الأجدر بى أن أتحول الآن إلى الحديث الدائر بين رفقتى الذكورية قال أحد أصدقائى على الفور إنه فى ذات يوم منذ ثلاث مائة عام سُئل فيلسوف عظيم:

هل تنتمى المرأة للبشر حقًا؟ وقد يساور الإنسان الشك فى هذا، وأنا أقره تمامًا. وأنت لا تدرى ما موقفك من الجنس اللطيف فلا تنتظر منهن أمانة ولا صدق، وعندما تتأخر تجد دائمًا شبكة مليئة بالأكاذيب. وفوق ذلك كله ينبغى عليك أن تهتم بمشاعرهن الداخلية؛ لأنهن يطلبن هذا. ولكن هذا ليس من شيمة الرجال. وحقًا، فإن علاقة الرجال و النساء موضوع يطول شرحه؛ فهن اللاتى يأتين بك إلى هذه الدنيا وأيضًا يخرجنك منها مرة أخرى.

كانت الشوارع داخل المدينة خالية؛ لأن المحلات والمكاتب مغلقة اليوم. الموظفون والعمال فى إجازة. فهم فى بيوتهم يأكلون وينامون ويدخنون، وقلما يخرج أحد اليوم للنزهة أو التجول؛ لأن

الطقس غير مناسب والجو ممطر بصورة متواصلة. الحقيقة أن المطر قليل، ولكنك لا تأمن بقائه كذلك. السكون والهدوء يلف شوارع المدينة كما لو كان كل من فيها قد فني. ومع هذا الهدوء التام كنا نسمع وقع أقدامنا على الأرض خطوة بخطوة؛ حيث كانت أقدامنا ترن على الإسفلت. كما لاحظت انعكاس صورنا من خلال فاترينات العرض الفخمة. ونحن الآن نسير فى موكب ونمر بحوانيت تبيع سرطان البحر ولحم الخنزير الطرى والجوارب الحريرية وكتبًا ولآلئ وأصباغ الزينة وبودرة الزينة، نمر عليها نمزقها وندوسها، حقًا إن المكان موحش وممل داخل المدينة. ولهذا فقد اتجهنا ناحية الميناء؛ حيث توجد هناك دائمًا حركة دؤوب. إنك لا تستطيع أن تحيط البحر المترامى بنظرك؛ فهو ممتد خارج الميناء من جميع الجهات، وفى داخل الميناء كانت السفن الأجنبية، وعليها البحارة يرتدون الأسود والأصفر. وانحدرنا فى الطريق العريض الملىء بالأشجار إلى الميناء؛ حيث الطريق الواسع الذى يموج بالحركة الدائمة، وعلى جانبيه يمينًا ويسارًا شاهدنا عجائب عدة مثل قرود صغيرة وكبيرة مدربة وغير مدربة وأكشاك النيشان وآلات لعب أوتوماتيكية، وقصر الرقص وأبدن امرأة فى العالم، وشاة بخمسة أرجل، وعجل برأسين، وعجلة دوارة بجانب أخرى، وأرجوحة بجانب أخرى، كما شاهدنا القطار الصغير المسمى بالقطار الثامن، الذى يرثى لحاله من القدم. وراقصات، وآكلى النار، ويوجد

أيضًا الخيار المخلل، وكثير من الآيس كريم، والشواذ من الحيوانات والإنسان، الذين يمارسون الفن والرياضة. وفى نهاية الطريق يوجد القصر الملعون.

فى البداية مررنا على أكشاك النيشان دون أن نعيرها أى اهتمام، وعند الرابع أو الخامس لم نستطع أن نتحرك من أمامها؛ حيث أرغمنا على التصويب. وإصابة الهدف كانت بالنسبة لنا سهل جدًّا مثل لعب الأطفال. والفتاة التى تعطى البندقية تبتسم باحترام. وعندما يصوب الجنود يكثر المشاهدون، كما هو الحال الآن. ومن بينهم كانت تقف فتاتان تضحكان عند كل طلقة وكأنهما اللتان أطلقتاها. ولقد لفتتا انتباهنا، ولكنهما لم تروقا لى، على العكس من رفاقى الذين سارتا معهم. لم أسر معهم فى الطريق؛ فقد كنت أشبه بعجلة السيارة الاحتياطية، التى لا حاجة لها وتركتهم فى طريقهم. فلقد ذهبوا ليرقصوا وبقيت أنا وحدى مكتفيًا بإرسال بصرى إليهم. هاتان المرأتان لا تثيرا اهتمامى. إحداهما لها ساقان معوجتان والأخرى ليس لها ساق مطلق. والأولى عندها سنة سوداء، وملابسها متسخة. وهذه الأشياء تلحق ضررًا بالغًا بالحب، وتضايقنى؛ لأنى دقيق جدًّا.

ثم وطأت قدمى حلبة ركوب الخيل، وهناك كانت امرأتان أخريان وطفل يركبون الخيل، وعزفت الموسيقى، وصوت طرقعة الكرابيج، وجرت الخيل العجوز فى الحلبة. لقد كان الطفل خائفًا، أما

المرأتان فكان تركيزهما عاليًا، ثم صرخ الطفل؛ لأنه فقد قلنسوته وابتسمت المرأتان.

وفي أثناء ركوبهما الخيل ارتفعت الجونلات عن جسديهما حتى أصبحتا شبه عاريتين، وحتى إن المرء يستطيع أن يرى كل شيء حتى موضع انتهاء الجورب، وبالفعل أثارتا انتباهي، وخصوصًا طويلة القامة منهما، لكن أخطأت إحداهما وهي تشرع في امتطاء صهوة جوادها؛ فهذا ليس بالشيء العسير. لقد تعاظمت المرأتان بعض الشيء. ولكن عندما ارتجلت استطاع المرء أن يكتشف الحقيقة، لقد كانت خيبة أمل حقًا. والآن ارتجلتا كلتاهما، وما زلت معجبًا بالمرأة طويلة القامة، ولكن كان هناك عاشق ينتظرونهما. كان رجلاً قصيرًا جدًّا مثل الجرذ (العرْسة) الحقير، تعلقت الفتاتان بالجرذ، وابتسمتا قائلتين: نريد أن نركب مرة أخرى. من فضلك! من فضلك!

فقال لهما: "كما تريدان" ثم نظرت إلى لوحة الأسعار، فوجدت مكتوب عليها أن ركوب الجواد لمرة واحدة يتكلف خمسة قروش " شلن"، و"كلما أردتم"، بالنسبة لي هذا غال جدًّا. ولكن هذا ما تفضله النساء الأنيقات؛ فالفتاة تفضل الجرذ ذا الرائحة النتنة، الذي يملك المال ويصرف عليها ببذخ عن شاب مفتول لا يملك إلا نفسه فقط، ونجمتين فوق ياقته. تركت حلبة الخيل وتجولت ببطء بمحاذاة الأكشاك هائمًا على وجهي دون أن يكون لي هدف معين. على

اليمين يوجد رجل برأس أسد، وعلى اليسار امرأة بلحية. أشعر بشيء من الحزن. الهواء منعش. نعم! إنه فصل الربيع؛ حيث تقوم القطط مساء بحفلة موسيقية، ونحن نسمعها أيضًا في الثكنات. لقد أتى الليل وانقضى النهار تاركًا اللون البنفسجي في الأفق. وبالفعل أتى الليل خلفي. وبينما أواصل السير جال بخاطري؛ فقد تذكرت أن الجرذ الحقير الذي قابلته في الحلبة ما هو إلا عضو من أعضاء البرلمان، ورأيت نفسي أقف في الثكنة وأقسم على الموت في كل وقت وحين من أجل الوطن. ماذا؟ أمن أجل هذا الجرذ أيضًا؟ كلا، لابد أن أتوقف عن هذا. إن مثل هذا التفكير قد يفضي إلى نتائج غير سليمة. إن قوادنا يتخذون القرار الصائب.

وهنا ناداني هاتف داخلي وسألني: "هل حقًا أنك لا تحب أحدًا؟" فأجبت مصدقًا نعم، هذه هي الحقيقة، أنا لا أستطيع أن أحب أحدًا، ولا حتى نفسي، أنا في الواقع أكره الكل، ما عدا قائدنا.

ثم واصلت السير بمحاذاة الأكشاك حتى وصلت إلى القصر الملعون ذي الجملون والأبراج والحصن والنوافذ ذات القطبان الحديدية، يطل منها التنين والشياطين وينبعث من مكبر صوت موسيقى هادئة قديمة، ويسمع المرء موسيقى باطراد حتى أصبحت عالية جدًا وتتخللها قهقهة وصراخًا ينطلق من الناس الموجودين في الداخل، ويسمع المرء في الخارج ما يجعله يصدق أن من في الداخل سعداء. وأنا أعرف أن كل هذا أكاذيب. إنها لوح فوتوغرافية

لجذب الجمهور، ليس لها خلفية. ولم يلفت نظرى أنها مثل سرايا المجانيين التى ينبغى على المرء فيها أن يتعلم الخوف والفزع. وهذا بالنسبة لى مجرد حماقة، ثم أردت أن أعود، ولكنى نظرت إلى المدخل، دون تفكير فى شىء، وكأنه شىء تلقائى، ثم توقفت وسألت نفسى: هل أواصل؟ ممكن، ولكن بعد خطوتين توقفت ونظرت إلى الداخل مرة أخرى. والآن أصبحت الدنيا مظلمة تمامًا ودخل الليل. ورأيت امرأة صغيرة تجلس على شباك التذاكر للقصر الملعون. ولا تتحرك؛ لأنه لم يأتها أحد.

وبعد برهة من الوقت أحسست أن العالم ابتعد عنى حتى كأننى اعتقدت أن قلبى توقف عن النبض. نظرت إليها نظرة طويلة واعتقدت أيضًا أن قلبها متوقف. لم يتغير الموقف، فقط تُعزّف الموسيقى القديمة الهادئة فى القصر. وهذه المرأة الصغيرة لديها عينان كبيرتان، ولكنهما لم تكونا عينيها، ولا هذا شعرها، لقد تخيلت أنها مجرد خطوط متقطعة. ثم أدركت أنى ما زلت واقفًا بلا حراك كما لو أن حائطًا أمامى، ماذا أقول؟ إنها لسخافة. لقد توقفت عن الحركة، قلت لنفسى إنك لمجنون. امض! ثم مضيت. وتعثرت فى الفراغ فلم يكن هناك ثمة شىء، والآن ابتسمت المرأة؛ لتعثرى. واستمرت فى الابتسام. ولقد راقبتها، ولكنها لم تنظر كثيرًا، بل أخذت قلمًا رصاصًا وكتبت على ورق أمامها أو تظاهرت أنها تكتب؛ لكى لا تنظر إلىَّ؟ لماذا؟ ألا تريدى أن تنظرى إلىَّ؟ ربما لأنى لم أرُقْ

لها؛ فهى لا ترى إلا بهلوانًا أو صعلوكًا. تحركت ولكن لمسافة قليلة ثم قلت لنفسى: "واصل سيرك" وصلت حيث يقف بائع الآيس كريم، فاشتريت قطعة واحدة ولكنى لم أستطع أن أرى من هنا القصر الملعون والمرأة التى تكتب ولم يأتِ إليها أى إنسان، ثم لعقت الآيس كريم ولكنه لم يكن له طعم؛ لأنه كان باردًا جدًا، وأحسست أن أسنانى أصبحت طويلة مثل الحصان العجوز. إنها تؤلمنى.

لماذا اشتريت هذا الشيء الملون، وأنا لا أحب الآيس الكريم أصلاً، وبينما أشعر بأن أسنانى تمتد أعترف بأنى اشتريت الآيس كريم؛ كى أستطيع أن أرى المرأة فترة طويلة من تلك الجهة.

إنه لشيء مضحك. أنا لا أعرف، هل تعجبنى؟ أنا لا أعرف كيف تبدو إذا ما نهضت واقفة.

إلى هذا الحين لا أعرف عنها شيئًا سوى ما بدا من شباك التذاكر. ربما تكون جميلة. وعندما تقف ربما تكون قصيرة، كما لو أنها جالسة أو يكون طولها ثلاثة أضعاف، أو ربما تكون غير مناسبة تمامًا. ثم قلت: "تصبحين على خير"، الآن نظرت إلى مرة ثانية، ولكن هذه المرة لفترة طويلة. وابتسمت مرة ثانية، لماذا؟

هل لأنى ألعق الآيس كريم بشراهة – إنه لشكل سيئ. أخيرًا انتهيت من هذا الشيء السخيف.

ولقد سمعت بائع الآيس كريم خلفي يسألني: "هل تريد قطعة اخرى؟ فقلت نعم. وبالفعل أصبح معي قطعة آيس كريم أخرى في يدي. وسألت نفسي: ما هذا الحمق؟ ماذا ألم بي؟ هل بلغ بي الجنون مبلغه؟ كيف ألتهم القطعة الثانية على الرغم من أن الأولى كانت سيئة. لقد جعلت من نفسي أضحوكة بسبب الآيس كريم، وكأني أقف كالتلميذ، ولكن بنجمتين من الفضة على الياقة. وبالفعل أردت أن أرمي الآيس كريم على الأرض، ولكن فجأة ظهر من الظلام فارس يمتطي جوادًا. والحمد لله لقد رأيته في آخر لحظة وأديت التحية العسكرية فشكرني ومر. الآن تخيَّلتها تضحك؛ لأني أديت التحية العسكرية والآيس كريم في يدي. إنه لمنظر مضحك حقًا. لقد كنت بالفعل أبله وأحمق، وعندما ضحكت ضاع صوت ضحكتها وراء الميكروفون، ولم أستطع سماع شيء، وتلون وجهي شيئًا فشيئًا. وعلى الفور ألقيت الآيس كريم على الأرض وأحدث صوتًا عاليًا. وسرت إلى القصر الملعون نحو شباك التذاكر مباشرة. هل تضحك عندما تراني وأنا آتي؟

لقد رأتني وتوقفت عن الضحك هاه. لقد رأتني عظيم الشأن وأنا أقترب منها. نعم عظيم الشأن. وقلت لنفسي: هل أنتِ خائفة مني؟ احترسي فأنا الآن في طريقي إليك لم يبقَ سوى الثلاث درجات الأخيرة، وفي الحال وقفت أمام شباك التذاكر النافذة، ثم نظرت إليها،

ورأيت شعرها ناعمًا ومصقولاً. ورأيت الورقة على المنصة أمامها، ولم تكتب فيها شيئًا مجرد شخبطة وخطوط.

وطلبت منها تذكرة دخول وكان صوتى عاليًا، فاعتذرت. وقالت: "تفضل! ولا أدرى هل ارتعشت يدها؟ أو أنا الذى ارتعشت؟ أعطتنى الباقى. لم أر أحدًا من قبل يعطنى المال بهذا الجمال يجب أن أفكر مرة أخرى فى الخطوط. وبعد ذلك دخلت إلى القصر الملعون. فى الداخل كان السواد حالكًا، و أصبحت الظلمة كاملة، وعلى المرء أن يمر يمينًا ويسارًا.

وبينما أتحسس الطريق كنت أفكر فى صوتها عندما قالت لى: "تفضل!" هل سمعت هذا الصوت بالفعل؟ متى؟ وأين؟ من زمن بعيد جدًّا.

وفجأة خطر على بالى أننى لا أعرف شيئًا عن صوت أمى، ولا أستطيع أن أتذكر أمى مطلقًا. وكثيرًا ما كان يجول بخاطرى عندما كنت أقف فى نوبة حراستى، وخاصة فى نوبة حراستى الليلية أن ما حدث لأمى سوف يمتد إلىَّ. فما زلت أتذكر الموقف، وأرى نفسى بين المنضدة والسرير. ولقد ماتت بعد الحرب العالمية بفترة وجيزة بسبب البرد وحينها كنت طفلاً صغيرًا. لم يكن يزيد عمرى وقتها عن ثلاث سنوات. وكان الشباك عاليًا، ولم أستطع أن أرى شيئًا، إلا عندما رفعنى شخص ما، وأيضًا لم أرَ شيئًا أو ربما نسيتُ

ما رأيتُ، كل ما أتذكره أن الممر يؤدى إلى نافذة فى الداخل، وأتذكر أيضًا أن المدفأة لا تعمل لعدم وجود الفحم، فبعد الحرب شح الفحم. وأول ما يظل بذاكرتى أن الجو بارد، نعم هذا كل ما أتذكره فقط، لقد كان هذا هو شعورى الذى ظل يلازمنى. إنه لشىء مضحك حقًّا أنه لم يدر بخلدى قط أنى لا أتذكر صوت أمى ألبتة.

الآن كدت أن أقع، فعلى الجانب الأيسر كان يجب علىَّ أن أسير، وساقى اليسرى منخفضة قليلاً عن اليمنى، وفى النهاية أصبحت اليمنى واليسرى فى مستوى واحد مرة أخرى. يا لها من تسلية. وهى تجلس الآن بالخارج عند الخزينة، ولها فم جميل، إن لم أكن مخطئًا. ولكن كيف تبدو فى الحقيقة؟ لقد راقبتها لفترة كافية. ولا أعرفها بالضبط. لماذا التهمت الآيس كريم؟ لقد كنت مغفلاً. توقف كفى. لقد كانت تخفض رأسها دائمًا؛ لأنها ترسم بعض الخطوط؛ لكى لا ترانى. يا لتلك الخطوط، فقد كانت السبب فى تعثر قدماى على السجادة والكبارى المتحركة. ولقد مررت على تابوت به أشخاص من الشمع مقطوعو الرقاب محاطون بالأشباح. ولكنى لا يخفى علىَّ شىء فأنا أفهم هذه الخدع ولكن تحزننى هذه المناظر، لقد ذهبت إلى أحد الأركان فرأيت هيكلاً عظميًّا، ثم درت حول الناصية فرأيت هيكلاً عظميًّا آخر نعم لقد رأيته عن قرب، لقد كان هيكلاً عظميًّا أصليًّا. هذا ما سيؤول إليه حالنا بعد نهاية تلك الحياة الغرور الفانية، ثم أمسكت العظام بيدى. خلف هذا الباب الأخير،

وقفت مرة أخرى بجانب شباك التذاكر، ولكن لم تعد خطوطى تجلس هناك، بل امرأة عجوز، لقد حدقت نظرى فيها.

ثم قالت وكأنها تقرأ أفكارى: لقد ذهبت ابنتى. وسألتها: "إلى أين؟" فقالت: "إلى السينما" فذهبت عنها بعد ما أديت التحية العسكرية. ومررت على الأكشاك حتى وصلت إلى وسط المدينة، ولا أدرى هل سرت ببطء أم بسرعة. وفجأة أحسست بألم فتوقفت، وسألت نفسى: لماذا لم أسأل المرأة العجوز إلى أى سينما ذهبت ابنتك؟ كان لديك الوقت، حقًا إننى معتوه. فرجعت إلى القصر بسرعة فوجدته مغلقًا ولم أجد أحدًا؛ لقد تأخرت وسوف أعود يوم الأحد القادم، وعدت إلى منزلى فى حوالى الساعة الثانية. ولا يوجد شيء يدعو إلى البهجة أو الضحك. إلى اللقاء أيتها الخطوط كنت أبتسم دائمًا، عندما أتذكر ما كان منى. القمر مضيء، والهواء منعش، وأقامت القطط حفلتها الموسيقية. وعندما ذهبت إلى فناء الثكنة رأيت أمامى القصر الملعون بأبراجه وحصنه ونوافذه الحديدية، والتنين والشياطين يطلون منها.

الفصل الثالث

النقيب

عندما يمر الوقت الذى نعيشه، عندئذ فقط يمكننا الحكم على هذا العالم. فبالخبرة يكون لدينا الاستطاعة على الرؤية الصحيحة ووضع مقاييس لهذا العالم وتحدد مدى القسوة والعنف والدموية التى اتسم بها هذا العالم.

وغالبًا ما تلقى الأحداث الجسام بظلالها علينا على حين غفلة، بيد أنها لا تحل علينا إلا ونحن مستعدون لها. فليس هناك من حدث إلا ونعد له عدته، فنحن قوم لا نهاب. فلا توجد ظلال فى العالم إلا ونعمل حسابها دائمًا، فأصبحنا لا نخاف شيئًا.

وفجأة، وفى ليلة يوم الجمعة دق جرس الإنذار فنهضنا من النوم بسرعة واصطففنا بكل عتادنا محاذيين الصف تلو الآخر، وكان ذلك فى تمام الساعة الثالثة صباحًا. وجاءنا النقيب يسير متباطئ الخطى، بخطوات متثاقلة أبطأ من المعتاد. وتفحص بنفسه، عما إذا كان كل شىء تمامًا؛ إذ لم يعد هناك أى مناورات. وحانت ساعة الجد بأسرع مما كنا نتوقع. أتى الجد. وما زال الليل طويلاً والدقائق متباطئة فى سيرها ولقد قربت اللحظة الحاسمة، وعما قريب ستنشب الحرب.

هناك بلد لابد من احتلالها، دولة صغيرة وعما قريب يصبح اسمها جزءًا من التاريخ، ولم يعد كيانًا قادرًا على مواصلة الحياة؛ حيث كانت تترأسها حكومة مؤسف عليها، ودائمًا ما كانت تمثل "الأحقية" المزعومة، وجهة نظر ومبدأ مثير للسخرية.

والآن يقف النقيب أمامى، وبمجرد أن نظر إلىّ جالت تلك الأفكار بخاطرى بشكل لا إرادى: آه لو أننى كنت عرفت اسمها، لكنت راسلتها مباشرة على القصر الملعون، كنت سأكتب: "أيتها الآنسة العظيمة"، كنت أود الحضور يوم الأحد القادم، ولكن للأسف يمنعنى الواجب من الحضور.

فالأمس كان يوم الخميس، واليوم هو يوم الجمعة، ولكن جدت لى أمور عاجلة فجأة، والتى لا ينبغى أن يعرفها أحد؛ فعقوبة ذلك الإعدام.

وما زلت لا أعرف متى سأعود؟ ولكنك ستظلين غايتى المنشودة. ظهرت منى ابتسامة دون إرادة منى. فاندهش النقيب على أثر ذلك لبرهة ثم سألنى. ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ فرددت عليه بليونة وطاعة: لا شىء.

وها هو الآن يقف أمام الجندى الذى بجوارى. وجال بخاطرى فجأة ذلك السؤال: هل له خطوط (هل لديه محبوبة ينشدها) أيضًا؟ هذا لا يهمنى الآن بتاتًا! تقدم للأمام! قالها النقيب، ثم أردف: ينادى

الوطن أبناءه ولا يعير أى اهتمام لحياة أبنائه الشخصية نهائيًا. وأخيرًا، حانت الساعة المرتقبة.

ولكن عندما يمر الوقت الذى نعيشه، عندئذ فقط يمكننا أن نقدر كم كنا ننعم بالسلام ثم تغامزنا بأعيننا، فنحن نحب السلام تمامًا مثلما نحب وطننا الذى نفضله عما سواه.

إننا لا نحارب، ولكننا نخلص العالم من الدنس، فقط ليس إلا، ثم تغامزنا بأعيننا مرة أخرى.

هناك دولة لابد من السيطرة عليها. بلدة صغيرة، نكبرها عشر مرات فى الحجم، ولهذا فنحن نتقدم بقوة. الغلبة لمن له ثقله وبخاصة مع الأغلبية الساحقة، وبالأخص إذا بوغت فجأة على الرأس دون إعلان مسبق للحرب، ودون الشكليات التى عفا عليها الزمن ويكسوها التراب. سنخلص تلك البلدة – نعم سنخلصها.

وخفية مثل اللصوص تجاوزنا حدود تلك الدولة المثيرة للضحك، ذات الكيان غير المحتمل. وسرعان ما قمنا بنزع السلاح من محصلى الجمارك ورجال الحدود، وبحلول الغد نكون قد أمضينا قرابة الثلاثة أسابيع، ولكننا أيضًا أحكمنا قبضتنا على العاصمة وأصبحنا سادة هذه البلد، وأصحاب السيطرة فيها.

وفى الوادى تحترق القرى، القرى تحترق والثائرون محاطون بالجبال الموحشة.

براڤو أيها الطيارون!

على الرغم من أنني لا أحتمل لكم ظلاً، ولكن ينبغي على المرء أن يعترف بالحق من أجل العدالة فلقد أديتم العمل على أكمل وجه.

فلم يصعب عليكم شيء، على الرغم من أنكم لم تعتادوا مثل تلك الظروف والتضاريس ولكنكم كيَّفتم أنفسكم مع أحوال هذه البلد. لقد حسمتم المعركة وأنجزتم كل شيء بنجاح. براڤو سلاح الطيران – براڤو!

اهدموا تلك المعدات، وحولوا هذا البناء إلى أنقاض، إلى خرائب وأطلال حتى لا يوجد شيء على هذه الأرض سوانا، وعندئذ سنظل كما نحن.

إلى الأمام! سنقتفى آثاركم فى شجاعة وهمة قلب، لابد أن نقتفى أثركم، ثم تقدمنا للأمام على أقدامنا مارين بهضبة مرتفعة، محاطين بالهوى المنعش، والمياه تنساب من تحت أقدامنا.

كان مساء لطيفاً، تشوبه سحب بيضاء صغيرة متناثرة فى ثنايا أفق وردى اللون.

منذ ساعتين ألقينا القبض على خمسة مدنيين باستخدام الأسلحة البيضاء. سوف نعدمهم بالسلاح الأبيض أيضًا؛ فالرصاصة خسارة لمثل هؤلاء الحثالة المحتالين، إلا أن الجبل كان خاويًا وخاليًا إلا من الصخر، فليس هناك ثمة شجيرة. فاصطحبنا هؤلاء الأسرى معنا ريثما نجد شجرة لنعلقهم عليها.

وكان الخمسة مقيدين معنا بحبل واحد، وكان أكبرهم يبلغ من العمر حوالى ستين عامًا، أما أصغرهم فكان يبلغ سبعة عشر عامًا على الأرجح.

لغتهم كانت قبيحة؛ فلم نفهم منهم أى كلمة. منازلهم كانت منخفضة وضيقة وقذرة؛ فهم لا يغتسلون، وكانت تفوح رائحة نتنة من أفواههم، ولكن جبالهم كانت تتميز بوفرة المعادن الخام، والأرض كانت خصبة، وما عدا ذلك فكل شيء سيئ. حتى كلابهم كانت قذرة وجرباء ومقملة وضالة ليس لها مأوى كانت تتسكع فى الخرائب. لم يعد هناك أى حيوان. فمن حولنا الأودية العميقة، ومن أسفلنا تنساب المياه. وعادت الغربان تحلق فى السماء فوق رؤوسنا. ثم انتقلنا إلى السهل العالى. وعادت الغربان تحلق فوق رؤوسنا مرة أخرى.

كان مساء لطيفًا. والآن يحل الظلام. بمجرد أن تتحدث الصحف عن كفاحنا ناطقة بالحقيقة المخلصة، عندئذ سيتغنى بنا شعراء الوطن.

وسوف تستحوذ عبقرية شعبنا على تفكيرهم، ويكونون بهذا قد أصابوا الهدف المنشود عندما يمدحوننا ويثنون علينا، نحن الأبطال المتواضعين.

فمنا أيضًا من قتل، ولكن لم يعلم بهذا حتى المقربون؛ لكى يكون ذلك مدعاة للفخر بضحينا.

لقد كانت قوائم المفقودين سرية للغاية، وظلت هكذا لوقت طويل، ولكن نزيف الدم المستمر جعل الأمر يتسرب بطريق غير رسمى. فى الأسبوع الخامس لزحفنا سقط نقيبنا فى ساحة الشرف؛ (ميدان القتال) فلقد حدث ذلك تحت تأثير ظروف غاية فى الغرابة حقًا. لقد أصبح النقيب إنسانًا آخر منذ أن تجاوزنا الحدود. فقد تغير كليًا. تغير وتبدل حاله كلاً وجزءًا. ولقد تساءلنا عما إذا كان مريضًا أم منقبض القلب، أو كان قلبه يعتصر ألمًا يحاول إخفاءه، فدائمًا ما كانت تزداد حدة قسمات وجهه كما لو كان يتألم فى كل خطوة يخطوها. وفى الخامس من يونيه كانت النهاية. فبدون احتياط اقتربنا من إحدى الخرائب حيث بوغتنا بفرقعة ناتجة من إطلاق مكثف من مدافع صوبنا دفعة واحدة. فانبطحنا أرضًا ثم بحثنا عن أى شىء نحتمى به، ثم تبين لنا أنه لم يكن إطلاق بنادق دفعة واحدة، وإنما كان مدفعًا رشاشًا. فنحن نعرف هذه الموسيقى؛ ونعى تلك الأصوات. إنه يختبئ فى هذه الشونة وما حولها. كل شىء يحترق، نعم القرية بأكملها.

ثم انتظرنا، وهناك فى الجانب الآخر تراءى لنا شخص قادم من البيت المفحم وكان يبدو وكأنه يبحث عن شىء ما. ولكن أحدنا صوب بندقيته وأطلق النار فصرخت وسقطت. نعم إنها كانت امرأة. وهى الآن ملقاة هناك وشعرها ناعم ومهندم، ولقد جال بخاطرى وللحظة ضئيلة مشهد القصر الملعون؛ فلقد تذكرته مرة أخرى.

ولقد حدث شىء آخر لم نكن نتوقعه للحد الذى عقد ألسنتنا جميعًا. وجعل الدهشة والتساؤل تسيطر علينا. فلقد نهض النقيب واقفًا واتجه ببطء إلى المرأة، وقد كان واقفًا وهو معتدل القامة بشكل مثير للعجب حقًا. هل سيذهب فى اتجاه الشونة؟ فلقد ذهب بالفعل، ولكنهم حتمًا سيطلقون عليه الرصاص فيرده قتيلاً. هل جنَّ؟ فهو يعلم أن الشونة يختبئ فيها من يحمل المدفع الرشاش. فماذا يريد إذًا؟ ثم واصل سيره. فصرخنا فجأة: أيها النقيب! أيها النقيب! ودوى الصوت معبرًا عما يجيش بداخلنا من خوف. نعم! كنا خائفين نرتعد وصرخنا مرة أخرى بصوت عال، ولكنه واصل سيره بهدوء. إنه لم يسمعنا.

هنا نهضت واقفًا وعدوت وراءه، ولا أعلم كيف فعلت هذا بدون ساتر يحمينى. كنت أريد أن أنتشله، نعم أنتشله من الهاوية. ولكن كل شىء انتهى، وانطلق المدفع الرشاش ولقد رأيت كيف أن النقيب ترنح وسقط أرضًا واستسلم ثم خبت حركته تمامًا. فعندئذ شعرت بألم حاد فى ذراعى أم كان ذلك فى قلبى؟ فألقيت بنفسى على الأرض واحتميت بالنقيب. نعم لقد مات. ورأيت فى يده شيئًا ما

أبيض اللون، وأدركت أنه خطاب، فأخذته من يده ولا يزال طلق الرصاص يدوى، ولكنى أحتمي بالنقيب.

ووجدت هذه العبارة مكتوبة على الخطاب: "إلى زوجتى" فدسسته فى جيبى، ولم أعلم شيئاً أكثر من ذلك.

الفصل الرابع

الشحاذ

لم يكن قلبى بل كان ذراعى، بل والأنكى من ذلك للأسف أن عظامى هى التى تحطمت؛ فلقد تم استخراج الرصاصة، وجمعت الشظايا مع بعضها. أسابيع طويلة وأنا أرقد فى المستشفى العسكرى. فى أول الأمر كنت فى بلد الأعداء، إلى أن تم نقلى إلى وطنى. وقد كانت عملية استخراج الرصاصة عملية معقدة، أكثر مما اعتاد المرء عليه. كنت أعانى من حمى شديدة.

وما آمل فيه الآن هو أن أستطيع تحريك ذراعى بشكل طبيعى مرة أخرى؛ لأنه فى حالة ما لم يحدث ذلك علىَّ أن أترك الجيش...

وما الذى يمكن أن أبدأ فيه بعد ذلك؟ لم أعد أمتلك أى شىء، ولا حتى مليمًا واحدًا.

– لقد كان انتمائى وولائى لوطنى شيئًا لا ريب فيه، وأنا فى غاية الاقتناع به، إلا أن معاش إصابة العمل قليل للغاية، لدرجة أنه لا يكفى حتى لسد الجوع.

– أين ملابسى وحذائى؟

– أيامى الخوالى، والتى لم أكن أتذكرها عادت للظهور أمامى مرة أخرى.

– بدأ الثلج يذوب.

– لقد اعتقدت أننى نسيتكم يا أيام شبابى الضائعة التى لا أمل فيها.

– الحساء الذى كنت أرتشفه. الأبخرة – القديسون الذين كنت أراهم على سطح الكنيسة... كل ذلك عاد للظهور أمامى مرة أخرى.

– دعونى فى هدوء.

– لكنهم لم يبتعدوا.

– يمرون أمامى فى صمت، ولكن بشماتة كبيرة تحت سماء قاسية، ثم توالت الإعلانات الصغيرة فى الصحف الكبيرة. الحراس الهاربون، المجرمون، وقطع الثلج الصغيرة.

– إنى أرتجف.

– بدت لى هذه الأشياء كما لو أنها كانت على ضريح مستقبلى.

– ثم سمعت صوت سيدة تقول: "لقد عاودته الحمى مرة أخرى".

قد كانت هذه هى الممرضة البدينة التى تعالجنى. وكنت أحب أن أراها؛ لأنها تبتسم بعذوبة كما لو كانت أسعد إنسان فى الوجود.

- ثم فتحت عينى، ورمقت الضابط الذى كان واقفًا بجوار هذه المرأة البدينة. إنه يراقبنى، أما أنا فلا أعرفه. إنه ملازم أول، وأخذ يكلمنى، ولقد سمعت منه أنه سوف يتم تكريمى نظرًا لشجاعتى الجسور، التى دفعتنى للقيام بمحاولة إنقاذ رئيسى. بعدها قام بمنحى نجمة فضة، إنها الثالثة، ثم تساءل عما إذا كنت أعانى من آلام شديدة. ولكنه لم ينتظر الإجابة، بل أردف قائلاً: إنه على يقين بأنه يمكننى تحريك ذراعى ثانية بشكل صحيح، وربما يرى أننى ينتظرنى مستقبل بارع. وربما أحصل على نجمة ذهبية. وفجأة اقترب منى بشدة، ثم حدثنى بصوت خفيض؛ حتى لا تتمكن الممرضة من سماعه، وقال لى: "إننى لا ينبغى أن أنسى أبدًا أننى لم أكن قط مجرد جندى عادى، وإنما - على حسب زعمه - أنا أحد المتطوعين للمواجهة".

- وفى صحف بلدة الأعداء، وتحديدًا بعد الصياغة الرسمية لم تكن هناك حرب، وإنما مجرد ثورة بغيضة. أما من جهتنا فلم تكن هناك أى وحدات عسكرية، وإنما - كما ذكرنا - فقط بعض المتطوعين للمواجهة والدفاع. هذا ما كان من جانب مريدى البناء أمام مجموعة منتظمة من أسافل الناس.

– ثم قلت له: "إننى أعرف ذلك تمامًا يا سيادة الملازم".

– ثم قال: "أردت فقط أن أذكرك". ثم ابتعد عنى ثانية.

– بعدها ناديت: "يا سيادة المقدم، ماذا عن موقفنا الفعلى؟

– ابتسم باستهانة، وقال: "ممتاز. لقد قمتم بعمل تطوعى شجاع تكلل بالنصر، إلا أننا فقط نقوم بالتنظيف.

– آه التنظيف "يجب أن أبتسم أنا أيضًا".

– ذهب الضابط، وأخذت الممرضة ترتب وسادتى، وبعدها أحضرت لى اللبن والخبز.

– وفى الخارج يشدو طائر.

– "انظر! انظر! لقد انتصرنا... نعم. نعم... يجب أن يكون المرء ذكيًا، إذا أراد خدمة وطنه بشكل نافع" ذكى وليس شجاع فقط.

– الآن ستستبدل بالحكومة أخرى... إنهم أناس مرتشون. أما الأرض، الأرض التى أردنا استعادتها فقد سقطت وسط الزحام. عمل رائع.

– لكن أنا مسرور.

– فقط لو كنت أستطيع تحريك ذراعى؟... ماذا يمكننى أن أقدم لها؟... أعتقد كل شيء. ثم طرأ لى هذا المعنى مرة أخرى، إننى أمتلك شيئًا.

– ماذا تستطيع أن تقدم بذراعك تلك؟

– عشر سنوات من عمرى.

– أمر يدعو للسخرية. هل تعرف كم تعيش؟

– وعود خاوية.

– لو كنت لا أزال مؤمنًا بما حُكى لى فى المدرسة؟ يمكننى القول إننى أستغنى عن غبطتى السماوية، وأذهب برضا نفس إلى الجحيم.

– لكن للأسف لا توجد ملائكة، ولا حتى شياطين.

– اعقل! فيم تفكر؟

– "لا توجد شياطين".

– يجب أن أبتسم.

– مرة أخرى تتراءى الأمور أمامى. القصر الملعون. النوافذ ذات القضبان الحديدية، والتنين، والشياطين تنظر من خارجه.

– يجب أن أبتسم دائمًا.

- لو ذهبت إلى هناك، لدخلته مرة أخرى. لا يمكن أن يكون المكان بعيدًا؛ لأن هذه المستشفى تقع بالقرب من الميناء؛ حيث توجد السفن الأجنبية بالبحارين ذوى البشرة السوداء والصفراء. ربما إنْ استطعت النظر عبر النافذة؛ لأمكننى أن أرمقه. إنه قصرى الذى اخْتفى.

- لكن الشباك مرتفع، ويمكننى النظر من خلاله فقط إذا قام أحد برفعى كما لو كنت طفلاً صغيرًا جدًّا.

- نعم إنك تجلس دائمًا على الأرض منذ كان عمرك ثلاث سنوات، ليس أكثر.

- "الجو البارد" هذه هى أُولى ذكرياتى.

- فقط لو كنت أَستطيع تحريك ذراعى... فقط لو استطعت استعادته مرة أخرى؟ "لا يستطيع الإنسان أن يعرف قيمة ما يمتلكه إلا فى حالة فقده فقط".

- أتمنى لو أجده مرة أخرى. إنه ذراعى.

- سوف أبحث عنه فى كل مكان. أريد أن أجمع الشظايا، ثم أضعها فى شكل فنى، كما لو كانت لعبة أطفال.

- وسمعت صوت الممرضة تقول: "إن الحمى تعود إليه دائمًا".

- أريد أن أرى الممرضة.

- بجوارها يقف الطبيب.

- وكل ما يفعله هو أنه يراقبنى، ويُهَمْهِم.

- ثم واصل سيره.

- غير حالتى هناك سبعة عشر شخصًا.

- الكثير من المتطوعين الجرحى.

- فى توازى رجل بجوار رجل.

- البعض يمكنه الوقوف ولعب الورق، أو الشطرنج.

- البعض قد بدأ يتماثل للشفاء.

- شخص واحد فقط فقد إحدى ساقيه التى لن تعود إليه أبدًا.

- اثنان وافتهم المنية. الأول منذ عشرة أيام، والثانى مساء اليوم.

- وحين لاحت منى انتباهة مفاجئة، رأيت أن هناك شموعًا تحترق فوق الكومودينو الخاص بهذا الذى توفى، وفى المنتصف يستقر الصليب.

- كان الصمت يخيم على المكان.

- هل نام الجميع؟

- ألا يستطيع أحدهم أن يرى؟... هل أنا فقط؟

- لا، فجميعهم مفتوحو الأعين، ولكنهم لا يتحركون.

- إن الصمت يزداد فى المكان.

- الممرضة تقف أمام الكومودينو وتصلى.

- وفجأة وجدت نفسى أفكر. الآن يقف هذا المتطوع أمام قاضيه الأعلى (ربه).

- لقد تعلمت هذا ذات مرة.

- الممرضة تدعو له. إنها تدعو لروحه التى لا تفنى.

- ترى ماذا كان يعمل؟

- الممرضة البدينة تدعو ربها، قائلة: "أرجوك كن رحيمًا معه".

- ترى أى ذنب قد اقترف؟

- لماذا ينبغى أن يكون ربه رحيمًا معه؟ لقد سقط هذا الرجل الشجاع؛ من أجل وطنه. ماذا يريد المرء منه أكثر من ذلك؟ لقد ضحى بحياته. "ألا يكفى ذلك؟"

- أما عن ذنوبه الخاصة، التى قد يكون اقترفها، فسوف تمحى جميعها، إذا كان قد مات من أجل أن يضمن الحياة الأبدية لأبناء شعبه. أتفهمين ذلك أيتها الممرضة؟

- ألا زلت تواصلين الدعاء له؟

- لِمَ لَمْ تصلى لى، من أجل أن تصح ذراعى الذى تفتت؟ انتظرى، أيتها البدينة، سوف أوضح لك الأمر إذا حانت الفرصة المناسبة!

- ثم حانت الفرصة بعد عدة أيام قلائل. عندما أحضرت لى هذه البدينة الخبز واللبن.

- إن حالة الذراع لم تتحسن.

- ثم قلت لها: "أيتها الممرضة، صلى من أجلى؛ حتى أشفى!

- ثم لاحت منها انتباهة، ولكن النظرة كانت طويلة. ثم سألت: "هل ما قلته خال من الورع الكافى؟ بالفعل لم أكن أعنيه بجدية، وكل ما أردته فقط هو أن أتحين الفرصة... لماذا؟

- بدافع الخبث.

- إننى لا أعتقد بأن فى الدعاء ما يفيد، ولكننى أجتهد لكى أبدو جادًا.

- قالت، وهى تضحك ثانية، كما كانت دائمًا: "إننى أدعو لكل مرضاى"، قالت ذلك ولم تهملنى.

- هل تعتقدين بأننى سوف أسترد صحتى ثانية.

- هذا ما لا يعرفه أحد.

- نعم، هذا ما أعتقده وسأزداد سوءًا.

- ثم استطردت الممرضة قائلة: "فى الدعاء كل ما يمكننا فعله هو أن ندعو الله. أما إذا كان سوف يستجيب لأحد؛ فهذا ما لا يستطيع أحد أن ينبئنا به؛ لأن الإنسان بوصفه مخلوقًا ضعيفًا لا يمكنه فهم هذه الصلات.

- أى صلات؟

- استطردت الممرضة قائلة: "إن الله يعرف كل شىء يسمع كل شىء، ولا يغفل حتى قدر طرفة عين، ليلاً أو نهارًا؛ لأن لديه ما يفعله مع كل شخص".

- "مع كل شخص؟"

- "طبعًا" – والشىء الرئيسى هو أن يؤدى المرء فرائضه. هل نسيتها؟ فرائضه؟

- ثم أخذت أرمقها، لقد كانت تسألنى برقة وهى أمامى بدينة، ورقتها بدت لى هذه المرة غير لطيفة.

– لقد جعلتنى أضطرب، ثم قلت وأنا أبتسم ابتسامة رقيقة.

– طبعًا أعرف فرائضه، "على سبيل المثال"، "حب عدوك".

– استوقفتها الكلمة ثم قالت بجدية، وصرامة: حب عدوك ولكن اكره الخطأ".

– "الخطأ"؟

– ثم حانت منى انتباهة.

– الآن أخذت تعاود الابتسام، كما أنها لم تقل شيئًا.

– ثم أومأت بود، بود شديد، ثم أتى الطبيب.

– لقد توجه إلى سريرى.

– ثم سألته: أيها الطبيب، كيف حال ذراعى؟

– فقضب وجهه ولم يجب.

– وبعد ذلك واصل سيره.

– أخذت أتابعة بنظرى، وفجأة اعترانى خوف. خوف فظيع.

– خوف.

– والممرضة لا تزال واقفة إلى جوارى.

– إنها تراقبنى.

- وأنا أريد أن أبكى، إلا أن كل ما استطعت فعله، هو أنى أعض على أسنانى.

- أغلقت عينى – ثم بدأت عينى تزغلل.

- كل شىء متشابك (ملخبط).

- إن ضعفى يزداد.

- عينى تزغلل – عينى تزغلل.

- من الواضح أن ذراعى...

- هذا التشابك (اللخبطة) أخذ بصنع دوائر حول سريرى. ومن دخل هذه الدوائر خرج تلّ كبير.

- تل ناعم.

- فوق التل يقف ملاك.

- إنه ينتظرنى ويمسك بذراعى فى يده اليسرى.

- ويمسك بيمينه سيفًا.

- إن الورود تزدهر إلا أن البرودة قارصة.

- ويجب أن أفكر. سوف أسأل الله لمَ هذه البرودة؟

- وخطرعلى بالى ذلك؛ لأن المرء يمكن أن يتكلم مع الله.

– وإننى أتذكر جيدًا أن المرء ينبغى أن ينذر له شىء حتى يساعده.

– فعلاً... حتى يساعده.

– يجب أن يتبرع له المرء بشىء. أى شىء، فإنه شاكر لكل شىء مهما كان صغيرًا كما لو كان متسولاً.

– أهديه شيئًا.

– إذًا سوف أهدى لأول متسول أقابله (هنا إذا استطعت المشى مرة أخرى) قرش، لا، ثلاثة، أربعة، خمسة.

– نعم خمسة قروش.

– فخمسة قروش يستطيع المرء شراء أشياء مختلفة، هذا إذا كان له سقف يأويه.

– إن خمسة قروش تعد عبئًا علىّ.

– وسوف أتبرع بها لربى الكريم؛ وذلك حتى يعطينى الملاك ذراعى مرة أخرى.

– عينى تزغلل – إنها تزغلل.

– الأيام تنقضى، وتأخذ معها الليالى.

– وعندما جاء الطبيب لم يعد وجهه يتغير.

– إن حالة ذراعى تتحسن.

– اليوم يمكننى أن أحرك ذراعى. طبعًا ببطء، إلا أنه أفضل. أفضل. أفضل.

– لو لم يكن يؤلمنى بهذا الشكل، لاحتضنت به العالم كله.

– ومرة أخرى عاد مستقبلى ورديًّا.

– وسوف أغادر السرير بسرعة، إذا سارت الأمور على هذا النحو دون نكسة.

– أنا فى تحسن – أنا فى تحسن.

– ثم أحضرت لى الممرضة ردائى.

– فاليوم سمح لى، ولأول مرة بأن أستنشق الهواء، حتى ولو لنصف ساعة.

– لكم أحب ردائى.

– أين كنت طول هذه المدة؟

– رد الرداء: كنت معلقًا فى خزينة الملابس إلى جانب سروال قديم، وسترة فاتحة، وملابس مدنية.

– ثم ارتديت ملابسى.

– ثم تساءل الرداء: لقد اختلفت كثيرًا. لقد نقص وزنك، كم صرت نحيفًا! إننى ألتف مباشرة عليك. لم تعد تبدو أنيقًا. وافقته على ما قال.

– قلت له بنبرة تعزية: لا عليك! – لقد أحضرت لك شيئًا معي.

– ثم علقت عليه نجمتى الفضية الثالثة.

– بعدها طبعًا أخذ يلمع، إلا أنه لم يبال إذا كانت النجمة تهتز.

– ثم قامت الممرضة بحياكتها.

– وأنا أراقبها فى المرآة.

– فى الجيب يوجد شىء أبيض.

– أى خطاب هذا؟

– فى أعلاه مكتوب: "إلى زوجتى".

– أخ. إنه خطاب رئيسى.

– ثم سمعت الممرضة تقول:" كنا نريد أن نرسله، لكننا لا نعرف لمن يجب أن نرسل الخطاب".

– أنت غير متزوج.

– أخ، أتعنى تلك البدينة أننى أنا الذى كتبت الخطاب؟

لا، لا فأنا أعزب.

– وأمي متوفاة، ولم تعد لى علاقة بأبى، الذى يعرج فى عمله، و هذا ما يجب عليه أن يفعله.

– ثم نحيت الخطاب جانبًا، وأخذت أستنشق الهواء.

– لم يعد لى أحد.

– لماذا لم أقل إن هذا الخطاب يخص أرملة رئيسي؟

– ربما لأننى أريد أن أقدمه لها بنفسى. هذا ما بدا لى.

– لأننى أعرف تقريبًا أين تسكن.

– وإذا سمح لى بالبقاء لفترة طويلة، فإننى سوف أقوم بزيارتها؛ لأنها تسكن خارج المدينة، وربما يتحتم علىَّ أن أبيت هناك.

– ما آماله أنها تعرف أن زوجها سقط من أجل وطنه.

– وفجأة خطر على بالى مرة أخرى. لماذا ذهب زوجك وقتها إلى المدفع الرشاش؟ هل أراد أن يغزو المدافع الرشاشة وحده؟ إنه يعلم جيدًا أنه يلقى بنفسه فى موت مؤكد – ترى ماذا كان ينوى فعله؟

– ماذا كان يتوهم؟

– ثم انحنيت جانبًا.

- وجاء متسول.

- أول متسول يقابلني.

- وضعت يدى فى جيبى؛ لكى أعطه الخمسة قروش التى وعدت بها.

- والمتسول لم يعرنى أى اهتمام.

- هل هو أعمى؟

أم أنه فقط يرتدى نظارة زرقاء؛ لكى يخدعنى؟

- إن الخمسة قروش تعد مالاً كثيرًا.

- ربما يرانى بوضوح.

- ربما يمتلك هذا المتسول أكثر منى.

- هل أعطيه القروش.

- لا، لن أعطيك إياها وسأتجاوزك.

- يا إلهى، لقد أصبحت مضطربًا. لقد تعذبت، وصبرت كل هذا؛ لكى يعود لى ذراعى... أفهمت؟

- إنه كان عمل الأطباء، ونذرى هذا كان وليد ضعفى. لقد كنت فى حالة حمى وفى غاية الإحباط، حين وعدت بهذه القروش الخمسة.

-نعم، لم أكن أعي.

-لكني الآن صرت واعيًا.

الفصل الخامس

فى بيت المنتحر

قالت الأخت: الله يعلم كل شىء، ولا يخفى عليه شىء بالليل والنهار.

لو كانت هذه هى الحقيقة، فأنا لا أفضل أن أكون إلهًا ليس له دور سوى مراقبة الفرد بصورة دائمة، وهذا عمل غير مجد، وبذلك أصبح الإله لا فائدة له مطلقًا.

ربما ليس له وجود على الإطلاق؛ لأنه يترك كل شىء يحدث دون أن يفعل أى شىء حياله. أو هكذا يبدو لى؟

باختصار: فالمرء لا يعرف نفسه، ومن يمكنه أن يعرف ما الذى سوف يحدث؟ فأنا لا أعرف.

فمن كان سيعرف أننى ذات مرة فى حياتى كنت سوف أنغمس فى علاقة مع أرملة رئيسى.

فمن علم بأمر هذه العلاقة ولو كانت لليلة واحدة؟ من الذى كان يستطيع أن يتنبأ بذلك؟

فكانت بالنسبة لى شيئًا خياليًّا، ثم إننى بدأت أفكر، ما القوانين التى تحكم عالمنا؟ القوانين التى لا تعرف الهزل؛ لذلك يمكن أن ينتاب المرء الخوف أحيانًا.

ربما توجد فعلاً "ذات علية".

ولو تنبأ لى أحد: أنك سوف تنغمس فى علاقة مع أرملة رئيسك، لقلت: إنه يهذى؟

فأنا أيضًا لا أعرف، هل أردت هذا حقيقة؟ فكل ما عرفته أن لديها سيقان طويلة.

فهى لابد أن تكون طويلة ربما أطول من النقيب.

نعم. نعم، فأنا أحيانًا أحب سيقان النساء؛ لأنها تشغلنى باستمرار؛ فهى يمكنها أن سير فوق كل شىء، وتصل بسهولة إلى كل بعيد، وكأن شيئًا لم يكن.

ولقد قرأت كتابًا ذات مرة عن لغة السيقان فى مجلة، وحملتها معى. ولقد وجدها قائدى فى المعسكر، وأخذها معه إلى البيت، وقامت زوجته بإحراقها فى فرن التدفئة. وقالت: حثالة!

لا لم تكن حثالة، ولكن كانت صورًا لنساء يرتدين ملابس خفيفة، أو بدون ملابس.

وغلاف المجلة كان لامرأة ترتدى الفرو، وعارية الصدر. وعندما نظرت إلى أرملة رئيسى لأول مرة، تذكرت ذلك الغلاف.

فقد كانت مرتدية روب الصباح، على الرغم من أننا كنا بعد منتصف النهار، وهى تسكن بالدور الأول فى فيلا صغيرة. ويسكن أسفلها وكيل شركة سابق. أما فوقها فلا يوجد غير السطح. وتقع الفيلا على الحافة الأخيرة للمدنية، وهى منطقة جديدة. فقبل خمس سنوات كانت هذه المنطقة خالية من الأضواء، والطرق المرصوفة، وموارد المياه. فكان لا يوجد سوى الحشائش؛ حيث كانت ترعى المواشى.

أما اليوم فقد تطور الحال، وأقيم بدلاً من المرعى بيت عائلى صغير ذو رونق. وعندما غادرت القطار شعرت فجأة أننى فى فصل الخريف، ففى داخل المدينة يمكن أن ينخدع المرء، أما خارجها فقد بدت الشمس حزينة جدًا، كما لو أن لها أعين دامعة.

ولقد تجمع الضباب فى دائرة، وتساقطت الأوراق الصفراء فى صمت. وكان هناك رجل عجوز يقوم بتجميع هذه الأوراق فى صمت.

ماذا يفعل بهذه الأوراق؟

سيدى النقيب، أين أنت الآن؟

فليس مسموحًا حتى التفكير فيك، وإلا تساقطت الأوراق مرة أخرى فى سكون أكثر.

فعندما رأيت أرملتك لأول مرة، كان ذلك بعد الساعة السادسة بقليل. وكان موعد وصول قطارى الساعة الخامسة وتسع دقائق بالضبط، ولكننى لم أذهب إليها فى الحال، بل تناولت كوبًا من البيرة فى بوفية المحطة. وقد كان شيئًا محرجًا لى أن أراها. ربما لم تكن تعلم أنك أصبحت لا وجود لك، وبالتالى كان يجب علىَّ أن أخبرها. ونظرت إلىَّ بفزع، وكان لابد أن أجد كلمات عزاء، لا أستطيع أن أفعل ذلك؛ لأنه لا يروقنى، فأنا لا أحب النساء الباكيات، ولكن خوفى بلا سبب فعندما بدأت أعتذر قاطعتنى فى الحال، وسمعت أنها تعرف بالفعل أنه لا وجود لك. فلقد أخبرها أحد الضباط أنك كنت متطوعًا، فضحكت على هذه الكلمة شيء مبالغ فيه، ولكنى لاحظت أنها قد تغلبت على آلامها.

لقد شربت من البيرة دون فائدة؛ فقد كانت بيرة رديئة.

نعم، ولم أعتقد حينئذ أننى سوف أنغمس معها فى علاقة، وفى الليلة نفسها. ولو كنت تنبأت بهذه العلاقة حينذاك لألقيت كأس البيرة فى وجهى.

ليس فقط، لأننى قد وجدت أنه ليس من الإخلاص أن أفعل شيئًا مع زوجة النقيب ولكن، انتظر...!

حقيقة أنا لم أخنه مطلقًا؛ لأنه غير موجود بين الأحياء، علاوة على أنه جثة هامدة قد طوتها الثلوج. وعندما تناولت البيرة الرديئة نظرت مرة أخرى إلى عنوان الخطاب(إلى زوجتى) فمن المضحك أن الممرضة قد اعتمدت أنى متزوج. إنها لنكتة أن أكون متزوجًا، فأنا أعتقد أننى لا أصلح لهذا.

وأنا متفق معك فى هذه النقطة، سيدى النقيب. فنحن نعرف جميعًا أنك لم تكن سعيدًا فى حياتك الزوجية؛ فلذلك أنت تعيش معنا فى الثكنات، أما زوجتك فهى تعيش بالخارج، ولا تراها إلا أيام الآحاد والعطلات فقط. فكان من المعروف أنه لا يوجد تفاهم بينكما. ولا يمكن أن نتصور أن لديك امرأة، وتكون منخرطًا معنا إلى هذه الدرجة.

فأنا أعتقد أن هذا المعسكر كان بالنسبة لك وطنك الوحيد.

فعندما كنت قائدنا، كنا نعلم جميعًا أننا أبناؤك. ما هذا بجانب حب المرأة؟

- فماذا كان هذا بجانب حب المرأة؟

وعلى الرغم من ذلك إذا ظل المرء فترة طويلة دون امرأة، فسوف تأتى ذات ليلة الأحلام التى فيها لا يعرف الإنسان أبدًا إذا ما كان امرأة أم رجلاً! كما قيل: لقد كان الوقت بعد الساعة السادسة بقليل.

ولقد جلسنا أنا وهى فى الصالون؛ حيث كان الروب الذى ترتديه ذا فتحه واسعة على الصدر، وسجائر كانت موضوعة على المنضدة. أخذت منها واحدة لتدخنها، وأعطتنى واحدة ودخنتها. وكانت ترتدى جوارب سوداء، ومن هذا يستطيع المرء أن يعرف أيضًا أنها قد علمت بالفعل بموتك. وعلى الحائط كانت صورتها معلقة، وأنت تعرفها. صورة زينية وهى مرتدية الفرو. ربما كان هذا أيضًا الفرو الذى قارنته لا إراديًّا بالصورة النصفية التى كانت فى المجلة، ولكنى أخبرتها بهذا مؤخرًا.

من فضلك لا تظن بى شيئًا، لم أكن البادئ بالأمر، وإنما كانت هى، ولقد كانت الطرف الفعال. و عانقتنى، وقالت: لماذا تعانقنى؟ وقامت بفك سترتى، وقالت: ماذا تفعل؟ وأعطتنى قبلة وقالت أتركنى! ثم جذبتنى إليها، وقالت أبعد عنى.

ولكنها فعلت كل ذلك لأول مرة بعد العشاء. ودعتنى بالتحديد للعشاء؛ لأن قطارى القادم كان حوالى الساعة التاسعة واثنتى عشرة دقيقة، إلا أننا لم نعد نفكر فى هذا.

على الأقل أنا لم أفكر فى ذلك. ربما هى بالفعل قد فكرت. نعم، نعم، فالرجال يسقطون فى الميدان، أما النساء فيسقطن فى المنزل. عندما يسقط الرجال يدفنون فى التراب، وعندما تسقط النساء ينهضن ويبدلن ملابسهن.

أيضًا زوجتك، يا سيدى النقيب! ستظل هى زوجتك! إلا أنه لماذا أحكى لك كل شىء؟ ولماذا؟ ولماذا أفكر فيك دائمًا؟ فهذا ينم عما لو أنى أردت أن أدافع عن نفسى. لا، فبحق الرب لم أكن بحاجة ضرورية لهذا. فأنا لم أرتكب ذنوبًا، وهى أيضًا بالمثل لم تفعل شيئًا. وأنت، أنت ميت! مختفى! ولقد انقطعت وانتهت العلاقة بينى وبينك مطلقًا، منذ أن عرفت ما الذى كتبه لزوجتك، ومنذ أن قرأته بعينى! فلماذا تسبنى فى خطابك؟ ما الذى فعلته لك؟ كنت أود أن أنقذك؟ لماذا اتهمتنى بأنى مذنب وعديم الكرامة؟ سيدى، كيف أفهم ما كتبت وماذا أسميه؟ كان من الممكن أن أتقبل أنك كنت مريضًا عندما كتبت هذا الخطاب.

– أستطيع أن أخبر أرملتك، أنك كنت على ما يبدو لم تكن فى وعيك. وعلى أغلب الظن أنك فقدت أعصابك، وخيالك المتشابك جعلك تمكر مكر السوء. فقد شحب وجهها عندما قرأت كلمات الخطاب، واحمر وجهها بعد ذلك، ثم اشتد احمراره. وتركت فمها مفتوحًا، كما لو كانت طفلاً مندهشًا، وبعد ذلك نظرت إلىَّ. لا، ليست بدهشة ولكن بفزع. لن أنسى هذه النظرة أبدًا.

– فلديها عينان ذات لون رمادى فاتح، وأنت تعرف هذا.

وحملقت إلىَّ بعينيها، ولكن بدا هذا لى كما لو أنها لا تفكر فى أى شىء، أو كما لو كانت أشياء كثيرة تدور فى رأسها؛ فهى

لم تصدر أى صوت، وبدأ الخطاب يرتعش فى يديها. وأصبح الأمر بالنسبة لى سيئًا، وأردت أن أستفهم عن الذى كتبته، ولكنها تقدمت إلىَّ، وقالت بصوت منخفض: شىء مفزع. ونهضت بعد ذلك وذهبت هنا وهناك. ماذا لديها إذن؟

وفجأة وقفت أمامى مباشرة، ولم تدر نظرها عنى وسألتنى: هل هو الذى أعطاك هذا الخطاب؟

نعم! هذا يعنى أننى أخذت الخطاب من يده. صه! قاطعتنى صارخة. لا تتحدث مرة ثانية؛ فأنت لست بإنسان! إن هذا لشىء فظيع، لا تتحدث!

وارتمت على الأريكة وبكت بشدة. وأنا لا أعرف شيئًا، وخطر على بالى كلمة هيستيريا – ماذا حدث؟ فأنا لا أعرف شيئًا، وتركتها تبكى، فهى تبكى بصوت ضعيف وبطئ. واعتدلت مرة ثانية، وجففت دموعها بمنديل صغير، واختلست نظرة. وبدأت تتحدث معى مرة ثانية. اسمع! يجب أن تحكى لى كل شىء. كل شىء. أتفهم؟ نعم كل شىء الآن.

نعم! لماذا الآن؟ هكذا استمرت، وحاولت أن تتمالك أعصابها. هل أخذت الخطاب من يده؟

- نعم، وقد لاحظت بالتحديد شيئًا ما أبيض فى يده. ألم تكن تريد أن تنقذه؟ فشعرت بالبرودة؛ لأنها ضحكت بجنون. نعم. قلت لقد أردت أن أنقذه. ولكن ألم تأت متأخرًا؟

نعم، متأخرًا. هى تبتسم دائمًا ثم تبتسم مرة ثانية. ألم تتركه؟ ألم تتركه؟! ونظرت إليها، وهى لم تبتسم هذه المرة. أتركته؟ الأمر كله بالنسبة لى غير واضح تمامًا. فقالت: احك لى كل شىء! من حقى أن أعرف الحقيقة؛ فلقد كنت زوجته الوفية حتى النهاية. وأنا لا أريد أن يضللنى أحد بالتطوع، ويسدل الستار على الحقيقة! فأنا أتنازل عن تلك الشفقة، وأطالب بالحقيقة عاريةً! وخطر على ذهنى أنها قد جنت، ويتضح من هذه السطور، ومن خطابه الأخير أنه لم يسقط، ولكنه انتحر شنقًا.

ونهضت لأعلى: شنقًا!

فهنا اختلط الأسود بالأبيض! ارتبكت الأمور، لقد كتب هذا بنفسه! والآن أريد أن أعرف كل شىء، كل شىء بالضبط، ولكن ما تريدين إذن، فهو لم ينتحر شنقًا!

لا تكذب! صاحت بى كفاك كذبًا!

الآن أصبح الأمر غبيًا. ولقد صرخت فى وجهها وقلت: أنا لا أكذب! ما الذى يدور فى خاطرك؟ لقد سقط فى الحرب. سقط.

قاطعتنى صارخة، وهى تضحك ببرود: هل قلت سقط؟ اقرأ خطابه الأخير يا كاذب!

ألقت بالخطاب على المنضدة، ورأيته موضوعًا هناك، ولكننى لم ألمسه بعد. وذهبت إلى النافذة، ونظرت إلى الخارج. وفى الخارج فقد مضى القطار. قطار الضاحية. وصرخت فجأة فى وجهى مرة أخرى، اقرأ الخطاب! اقرأ، ولا تكن جبانًا!

وقلت، وقد اعترانى الغضب: أنا لست جبانًا، وخطفت الخطاب بسرعة، وبدأت أقرأه. وقرأت: زوجتى العزيزة، قبل رحلتى الطويلة إلى الحياة الأبدية بقليل، أريد أن أشكرك كثيرًا من أجل حبك وإخلاصك. سامحينى! ولكنى لا أستطيع أن أواصل الحياة؛ فالحبل يخنقنى. أنا أختنق. والحبل؟ ما الذى كتبه النقيب؟ وتابعت القراءة: نحن لم نعد جنودًا مطلقًا، ولكن نحن لصوص أشرار، وقتلة جبناء؛ فلم نقاتل ضد أى عدو، ولكن كنا نقاتل بخسة ودناءة، نقتل الأطفال والنساء والجرحى. وألقيت نظرة على المرأة، لم تزل واقفة بجانب الشباك، وتنظر للخارج. ضد النساء؟ نعم بالضبط. سامحينى! كتبها النقيب؛ لأننى لا أستطيع التعايش فى هذه الفترة.

ونظرت إلى زوجة النقيب، وأنا أفكر: هل يروق لك العيش فى الوقت الحالى؟

وسألت نفسي: هل يروق لي هذا أيضًا؟ إنه لعار. وتابعت القراءة. وما يؤلمنى أشد الألم هو سقوط وطنى ودماره، الذى قد فقد لأول مرة كرامته، وإلى الأبد. اعطنى القوة، يا إلهى؛ لكى أستطيع أن أضع نهاية لهذا؛ لأننى لا أريد أن أعيش بقية حياتى مذنبًا، وشاعرًا باشمئزاز تجاه وطنى. "الاشمئزاز". ما زالت تطل المرأة من النافذة إلى الخارج. ما الذى يجذبها إلى الخارج لهذه الدرجة؟ بالتأكيد لا شيء. أنظر إليها، وأنا أفكر فى النقيب. إلى أى مدى يقودنى هذا؟ من الذى يستطيع أن يفهمك؟ لماذا تشعر بالاشمئزاز من وطنك؟ نعم فبالتأكيد أنت لا تريد أن تكون معنا، مع جنودك. فلقد أصبحت غريبًا عنا. هذا ما شعرنا به حينئذ – ألم تتذكر على سبيل المثال: كما علمت فى وقتك أننا قد حسمنا أمر اثنين من الأسرى، وهذا ما حرضت عليه.

وقد كان هذا التصرف المتسرع المشين ثغرة فى الانتصار. فالمرء لا يكتسب الحروب بالأيدى الناعمة. وهذا الذى كان يجب أن تعرفه! ولكنك كنت تصيح فينا قائلاً: إن الجندى لا يكون مجرمًا، ومثل هذه التصرفات المشينة تسوء. إنه عمل مشين، ماذا يعنى هذا؟ ونحن نتذكر أن هذا مصطلح من الحرب العالمية، ولم نتعلمه مطلقًا.

وقد قمت أنت بنزع نجمة الجندى من كتفه، هذه النجمة الفضية لذلك الرفيق الذى قد توصل إلى هذا الحكم. سأل النقيب: ماذا يعنى هذا؟ وفى اليوم التالى استرد الرفيق نجمته مرة ثانية، وأنت

لقيت عتابًا صارمًا، وقد علمنا جميعًا ما جاء فى التقرير. فقد أخبرنا الضابط بما حدث. الأوقات تتغير، ونحن لا نعيش فى عصر الفرسان. أيها النقيب، أيها النقيب، هذا لا يعنى شيئًا! ويحضرنى أننى أردت مصلحتك أم قد غدرت بك؟ هل قذفت بك؟ وهل لم أكن أريد أن أنقذك من الموت؟ فأنا أعرف لماذا توجهت إلى المدفع الرشاش، والآن أعرف بالتأكيد أننى لم أقدم لك معروفًا.

ولكن لابد أن تتذكر ساعدى! فهو لا يزال مصابًا، وربما سيبقى كذلك للأبد.

كيف استطعت أن تجعلنى مذنبًا، وقد أردت مساعدتك؟ ولماذا تشمئز منى؟

إننى أنتمى إلى الوطن، وأيضًا زوجتك، التى تقف هناك بجانب الشباك. وحتى لو كنتما تتشاجران دائمًا. بالتأكيد كانت تفضل أن تعود إليها مرة أخرى. فهى ما زلت امرأة شابة، وتحتاج إليك! ولكن على الرغم من ذلك – على الرغم من أن الفرد لا يلعب أى دور، فكان عليك ألا تفعل ذلك. انظر! فهى أرقى من ذلك. سوف أقوم بتهدئتها الآن، وأقول لها: إن الحبل لا يمثل أى دور على الإطلاق، بل كان الأمر مجرد مدفع معادى. وقلت لها هذا، وقد أنصتت لى بانتباه، وسألتنى: هل هذه هى الحقيقة؟ فقلت: نعم. وبدت لى حزينة بعينها اللامعة، وضحكت قليلاً كما لو كانت متعبة.

وعاودنا الصمت مرة أخرى. ولقد أدهشنى أنها أصبحت هادئة. وفجأة سألتنى هل تريد أن تعدنى بشىء؟

بالطبع.

"من فضلك هل يمكن أن نحتفظ بمضمون هذا الخطاب لأنفسنا؟ بالطبع تفضلى! أخذت الخطاب وتوجهت به إلى التسريحة.

لقد كان الأمر محرجًا جدًّا، إلى أقصى درجة، بالنسبة لى. أنه ينتسب لأحد كبار الموظفين، ومن عائلة الضباط. لذلك لو عرف بأمر هذا الخطاب الخطير سوف تصبح فضيحة عارمة.

سمعًا، وطاعة!

فهم يستطيعون فعل أى شىء، ويمكنهم أن لا يتركوك فى قبرك دون راحة، وسوف يخرجونك مرة ثانية، ويمزقون جثتك فى مكان حتى يعرفوا أين هى عدم الكرامة عندك. هذا ليس بالأمر المستحيل. يجب أن أفكر أنهم سيطلعون على جريمتى، وقاطعت أفكاره وهى تضحك مرة أخرى. وسوف يتوصلون إلى الرب، إن الأمر سيظل بيننا فقط؛ لأن الرب الرحيم سوف يخفيه بالتأكيد، ثم أومأت لى برأسها، وغادرت الحجرة، وذهبت إلى المطبخ لتعد الطعام؛ لأنها كما قالت: إننى ينبغى أن أتناول معها العشاء؛ لأن قطارى سوف يتحرك الساعة التاسعة واثنتى عشرة دقيقة.

أنا الآن وحدى فى الحجرة. وكانت السجائر على المنضدة، فأشعلت واحدة. وفى المكتبة توجد مذكرات عن الحرب العالمية. الكتب العسكرية التى تخصك، أما الروايات الحمقاء فخاصة بها. وفى المطبخ تتخالط أصوات الأطباق. ماذا سيكون على العشاء إذن؟ من المحتمل أن يكون عشاء خفيفًا. ربما يكون شريحة لحم جيدة وزبد وجبن وخبز. وقد بدأت تمطر فى الخارج، و تهتز الأشجار بينما كل شىء هادى فى الداخل. نعم إنه الخريف. واشتد الظلام. وفى وسط الظلام الحالك يسقط شعاع من المصباح على منتصف المنضدة، هنا كان يجلس كلاهما النقيب وزوجته. وفجأة دار فى خاطرى، انظر فأنت هنا تملك حياة هادئة، تلك الحياة التى كنت تستخف بها كثيرًا، أليس صحيحًا؟

بينما أنا أتسائل خطر على بالى والدى، الذى يعرج الآن فى حانته وبدأت أتأسى عليه، فهو أيضًا أراد أن يحصل على مثل هذه الحجرة، ومثل هذا المصباح، والمكتبة والكرسى المريح ومنضدة كبيرة وأخرى صغيرة وامرأة تخبط الأوانى بعضها بعضًا فى المطبخ. هل كانت أمى تجيد الطهى؟ أنا لا أعرف، ولكن يجب أن أزورها مرة ثانية؛ فأنا لم أذهب إلى قبرها منذ سنوات. وفجأة أصبح الأمر غريبًا بالنسبة لى تمامًا؛ لأنه لو استطعت أن أنسى وطنى بسبب امرأة يمكن أن يترك المرء وطنه بسبب طهى امرأة؛ لأن الحب يأتى عن طريق المعدة. يجب علىّ أن أبتسم ونهضت وأخذت

أتمشى فى الحجرة؛ حيث يقع فى الركن مرآة كبيرة أرى فيها نفسى وأنا أمشى. وفجأة خطر فى بالى كيف كان يمشى النقيب؟ وحاولت أن أقلد مشيته، ولم أنجح. وبالفعل كانت عبارة عن خطوتين مستقيمتين، هكذا كان يمشى! بطيئًا نوعًا ما.

نعم، هذه مشيته، وهنا كان ينتظر الطعام هكذا. إننى أشعر بالجوع. لماذا هذا الانتظار الطويل؟ ماذا تفعل؟ ماذا تصنع فى الخارج؟ بينما هممت أن أشعل السيجارة الرابعة، فإذا بها تأتى أخيرًا بصينية، وكان عليها شرائح لحم محمرة مع السلطة. براڤو! وأعدت المائدة ولم تتفوه بكلمة – السكين والملعقة والشوكة – كل فى نظام. كل منظم فى صف؛ حيث الرجل بعد الرجل. أنا الآن النقيب. فأنا أجلس مكانه، إنه لجميل أن يدرك المرء أن لديه امرأة بالمنزل، تفتح الدواليب وتغلقها؛ لكى يكون كل شيء موضوعًا بنظام. نعم، إنه لشيء جميل جدًّا إذا استطاع المرء تحقيق هذا لنفسه! إن السعادة تكمن فى المال، وليس فى شيء آخر.

بلى، توقف! فالنقيب استطاع أن يبنى السعادة المنزلية، على الرغم من ذلك كان يسكن فى الثكنات، وكانت لا تراه سوى يومى الأحد والعطلات. هناك خلل ما! كل هذا الحب السماوى، والأرضى، وسنفعل ما اتفقنا عليه. فأنا لا أريد أن أعانى من أى جرح، وأنا أيضًا أكره كل شيء؛ فالنقيب نفسه قد غاب عنى بالفعل، منذ أن قرأت خطابه، منذ أن اشمأززت منه. وسألتنى: هل تريد نبيذًا أحمر

أم أبيض؟ أشرب أى شيء. ولقد ملأت كأسًا من النبيذ الأحمر لنفسها أولاً ثم لى. ورفعتُ الكأسَ، قائلاً: فى صحة ربة المنزل! وقالت بصوت منخفض، شكرًا، وارتشفت رشفتين. ولقد كانت شاحبة اللون، ولم نتحدث. ودقت الأجراس من بعيد. فأنصت إليها، وهى تقول: إنه كشك السكة الحديدية بالمحطة. فعندما يحل الظلام يستطيع المرء أن يسمع الإشارات.

ما علاقة ذلك بحلول الظلام؟ تساءلت: لأروح عن نفسى، مستغلاً فرصة أنها تحدثت أخيرًا؛ لأن هذا العشاء الصامت قد أتعب أعصابى.

أنا لا أعرف، ولكن الأمر هكذا، ثم أخذت تشرح مرة ثانية، دون أن تنظر إلىَّ، قائلة: إنه توجد أشياء غامضة فى عالمنا، مثل الأسرار الغريبة، والعلاقات الخفية. ألا توافقنى الرأى فى هذا؟ لم تنتظر حتى إجابتى، ولكنها استمرت، وأخذت تقلب فى السلطة، وهى متمعنة. لقد رأيت حلمًا مفزعًا. لقد حلمت بأننى أجلس على تلك الأريكة أقرأ إحدى الروايات، وهنا دخل زوجى مسرعًا، وصاح بى أقدمى! لقد حان الوقت!

وبعد ذلك وبخنى؛ لأننى لم أنته بسرعة بعد، وكان يوبخنى بصورة سيئة جدًّا، فعلى الرغم من أنه كان رجلاً مهذبًا فإنه لم يكن صبورًا فى الواقع. وارتديت ملابسى بسرعة، وفجأة رأيت أن جبهته

بها جرح عميق ينزف. فصرخت فزعًا، ولكنه كان يضحك، ووضع إصبعه على شفتى، وهمس لى: اصمتى، فالأطفال نائمون. فنظرت إليه جيدًا، وقلت: ماذا حدث إذن لرأسك يا ألفونس؟ فقال: لا، لا تهزى بالسخافات؛ فهذا ليس رأسي، ولكنه قلبى، وعندها تيقظت.

فكان تعليقى: رائع؛ فقالت: بل الأكثر من رائع أننى قد حلمت بهذا الحلم فى اليوم نفسه الذى لقى فيه حتفه. رائع جدًّا، وهل اختفى بعد ذلك فجأة: أعنى فى الحلم؟ "نعم لقد دخل عبر هذا الباب، واخترق الخشب مباشرة كما لو كان بلا جسد، وإلى أين يؤدى هذا الباب؟ وحملقت فىَّ للحظة، وقالت: إلى حجرة نومى. واحمر وجهها.

لماذا؟ واحتست كأسها بسرعة، وفجأة بدأت الكلام مرة أخرى قائلة: ما وظيفتك؟ طالب؟

أنا طالب؟ هل أبدو هكذا؟ هل ينبغى أن أقول لها إننى دون الزى لا أساوى شيئًا.

هل أقول إننى كان يمكن أن أكون من المجرمين، لولا أن ضابطًا من ضباط المباحث تعثر فى الثلج. وقلت: نعم، أنا تلميذ. وقد جندت بعد ذلك كمتطوع. قالت: هكذا؟ وأصبحت أكثر جدية. محتمل أنه خطر على بالها شىء عندما سمعت كلمة متطوع، ولكن يجب أن أضحك؛ لأن هذا الأمر أثلج غرورى؛ فقد اعتبرتنى جامعيًا، فكل شىء لا يدور حول المال فقط، ولكن حول التأثير الشخصى أيضًا.

فمن يملك جنيهًا يساوى جنيهًا! وبذلك أستطيع أن أتحدث معها أى وقت، متى تحضرنى الكلمات والعبارات، ولكننى كنت فى الحقيقة مرتبكًا، وعاودت التفكير مع نفسى مرة أخرى، وأقول: انظر، فأنت تجلس، تتناول الطعام مع سيدة مجتمع من المفروض أنها اعتبرتك طالبًا جامعيًّا. ورويت لها أشياء عديدة فضحكت مرة بصوت عال، ولكنها اختنقت فجأة، ونظرت حولها بخوف، كأنه غير مسموح لها أن تضحك اليوم. وحكيت لها عن ساعدى الذى لم يشف بعد، ولكنى أخفيت عنها سبب إصابتى؛ لأننى قد أردت إنقاذ رئيسنا. لماذا لم أخبرها أن ذراعى ما زال يؤلمنى حتى عند الشراب، هل لأننى جازفت لكى أنقذ زوجها؟ ولماذا لم أتحدث عن ذلك؟ لماذا لا أتفاخر بأننى بطل بالفعل؟ فأنا نفسى لا أعرف. إنه كان صوت ما بداخلى يحدثنى: لا تذكر اسمه مطلقًا. حتى اسمه؛ فإنه لم يعد موجودًا الآن.

وينبغى ألا يظهر حتى ظله مطلقًا على هذه المنضدة. ابتعد عنى الآن؛ لأنك غائب. ربما لأنها ضحكت منذ قليل. فينبغى ألا تنظر حولها، إذا ما أرادت أن تضحك! فكل شىء قد انتهى.

وقلت: الوقت يمر وأصبح متأخرًا، يجب أن أذهب الآن.

فقالت: لم نشرب كل النبيذ بعد.

فأنا لم أتناول النبيذ منذ وقت طويل؛ لذلك فقد أثرت علىَّ رأسى، وحكيت لها عن إحدى الفتيات، التى كانت تطاردنى، ولكنى

لم أكن أرغب فى ذلك. وذلك لأنها كانت تصغرنى، ولاحظت أنها تراقبنى. وكانت تضحك بسخرية؛ لذا فقد توقفت عن الكلام، ولقد دقت أجراس المحطة مرة أخرى. فانتبهت، وارتجفت.

ماذا يحدث؟

إنه القطار الأخير الليلة.

الأخير؟ أجل، ليلة سعيدة!

ولكنها هدأت من روعى.

يمكنك أن تبيت هنا مستريحًا على هذه الأريكة، إذا ما كان هذا لا يضر ساعدك، ولكن هذا لا يصح.

لماذا لا يصح؟ فأنت لا تزعجنى على العكس؛ فأنا لا أسعد بكوني وحدى في المنزل. فقد سافر من فى الدور الأول، أما خادمتى فسوف تعود فى الصباح الباكر.

ولذلك لا يوجد أحد بالمنزل، وغالبًا ما يأتى الشحاذون المخيفون. شحاذون؟!

وقد وضعتنى هذه الكلمة فى مأزق؛ لأننى يجب أن أفكر فى الخمسة قروش التى معى فى جيبى. والتى لم أعطها للشحاذ. ونظرت إلى نفسى في المرآة. ولقد لفت نظرى فجأة أننى أستطيع أن أرى نفسي من هذا المكان.

منظرى لا يروق لى!

وقالت: إن هؤلاء الشحاذين يزدادون وقاحة.

الفصل السادس

الكلب

لقد أوت إلى حجرتها، وخلعت أنا ملابسى، ووضعت الجاكت على أحد الكراسي، ولكن قمت بارتدائه مرة أخرى؛ وذلك لأن الليلة باتت أبرد مما كانت.

على ما يبدو لقد هبت عاصفة، واهتزت الستائر، خاصة اليسرى لقد وقعت ناحية ذراعى المريض.

لقد اندسست تحت الغطاء التى قامت بإعطائه لى، ولكنى لم أنم إلا للحظة فقط، ثم استيقظت مرة أخرى. لم يتركنى خطابك فى هدوء.

لقد بدت الليلة أطول مما كانت عليه، وتخبط السقف بفعل العاصفة. فهو الآن يسير كأنه جندى جيئة وذهابًا. هذا الخطاب. هذا الخطاب!

أيها الكلب الأحمق، نم! ولا تفكر طويلاً.

أترى الجبال العالية المحيطة بالمنضدة؟

وفى المرآة تحترق إحدى المدن.

تقدموا فقط فوق هذه الهضاب العالية!

تقدموا إلى الأمام، يا جنود الدكتاتور!

من حولنا توجد هوة عميقة، ومن تحتنا تهدر المياه.

لقد قمنا بشنق خمس من المدنيين، واحدًا تلو الآخر. وحلقت من فوقنا غربان.

ما الذى يحدث مع النقيب؟

من الواضح أنه لم يعد بأى طلقة. لقد عجبنا لذلك، حتى إننا هززنا رؤوسنا تعجبًا.

لقد خسرت بالفعل الكثير من الأحياء.

وبلغ من بعضهم أن همهموا.

وأنت بالكاد تصيح فى مقدمة صفوفنا كل صباح، وأنت لا ترى غير تجهيزاتنا، ولا شيء أكثر من ذلك. وأنت تمر من خلال الصفوف ولا ترانا.

أحيانًا نشعر بالفعل بالوحدة، على الرغم من أننا نحيا فى مجموعات. ونشعر أننا فى حاجة ماسة إلى من يساعدنا، ولكن لم يكن أحد هناك. وجاءت الغربان ثانية.

وبشوق وبلهفة تذكرنا الأيام الجميلة التى قضيتها فى أرض الطابور والتكنات، فما أجملها من أيام عندما نستعرض حرس الشرف، وكان النقيب يومئ برأسه لنا، مستحسنًا بطريقته الواثقة؛ لأن كل شىء كان مضبوطًا من الخارج والداخل. آه أيها النقيب، هكذا الأيام؟ هكذا سألت. ثم ظهرت أرملته فجأة على باب حجرة النوم، لقد كانت شاحبة ومرتعشة وعليها ملابس خفيفة.

جلستْ فوق أحد الكراسى، ووضعت رأسها على المنضدة، وأخذت فى البكاء. فسألتها: ماذا بك؟

أنا لا أستطيع البقاء هناك أكثر من ذلك.

من الواضح أنها الأعصاب، ولكنى لا أستطيع البقاء وحيدة أكثر من ذلك، فدائمًا أسمع أصوات بمجرد أن أذهب إلى السرير. أشعر بأشياء تحوم حول سريرى.

وماذا بعد ذلك؟

نظرت إلىَّ بعينيها المليئة بالدموع، ثم قالت بهدوء: الكلب!

كلب؟

ثم صرخت فجأة: لا!. أنا لن أرجع هناك ثانية، أبدًا، أبدًا.

ثم بكت بحرقة أكثر.

نهضت، نهضت من مكانى؛ فأنا لم أخلع سوى حذائى، ثم عرضت عليها النوم على الكنبة، ولكنها أرادت النوم على الكرسى. لم أرد تركها، ثم لمست كتفها، ولكنها قامت بغضب، وصفعتنى على ذراعى. وإذا بى أصبح همجيًا، وألكمها. فصاحت بى: ماذا فعلت؟

ثم صرخت بها قائلاً: اهدأى!

فذراعى مريضة! هناك توجد الكنبة، ولا أريد كلمة أخرى!

ولا كلمة أخرى؟ سألتنى بهدوء، وظلت تتبعنى بعينيها.

وقفت أمامى وكأنها عدوى الأوحد، بسكونه وغضبه.

يجب أن أفكر فى التمثال النصفى، والمحاط بالفرو، ولكنى لن أنظر أبعد من ذلك، وهى تستعيد هدوءها. الآن يطير ملاك فى الحجرة، يقول: الأطفال. وأنا لا أرى غير فمها.

وهى لم تغلق فمها، وشفتاها تبدوان مبتلتان. وقلت بصوت منخفض: اجلسى هنا!

قمت واقفًا. قالت: ماذا بك؟ لماذا تخاطبنى بأنت، وليس بحضرتك؟

هل قلت أنت؟ لم أشعر على الإطلاق.

أردت أن أتأسف، فإذا بأصابعها تتخلل شعرى ببطء، وشفتاها كانتا تتحركان.

ماذا كانت تقول؟ لا شيء.

ولكنى سمعت ذلك، إنها تكذب.

لقد قالت بالفعل: ما الذى فعلته بى؟

الفصل السابع

الابن الضائع

فى الحقيقة أنا لا أريد رؤيتها مرة أخرى، أرملة النقيب، وهى أيضًا لا ترغب فى رؤيتى مرة أخرى. ففى ذاك الوقت. طلع الفجر، وأردت أن أستأذن منصرفًا؛ حتى ألحق بأول قطار الضواحى، فقالت فقط: لقد نسينا ذلك يا صديقى.

كانت تعتبرنى طالبًا. وهذا أسعدنى حتى ذلك الوقت.

نعم، لقد كانت مغامرة فقط، والتى تحدث فى كل الأيام والليالى مليون ومليون مرة، والتى تخضع كل مرة لظروف مغايرة.

ولكن ربما كانت كل هذه الظروف من الأشياء الطبيعية.

وعلى الرغم من ذلك، فلقد كنت سعيدًا بهذا؛ لأن كلينا كان ينبغى عليه أن ينسى ذلك؛ لأننا لم نخلق لبعض. فأنا بالطبع لا أعرف، أكان ذلك حقيقتها، أم أنها كانت معى بجسدها فقط، باختصار، وعلى الرغم من ذلك فلم تتم أية روابط داخلية، والشيء الوحيد الذى أعرفه هو معرفتى القديمة أن سيدات المجتمع أنفسهن أيضًا إناث.

لقد تأكد لى ما أعرفه، ولم أرد معرفة أكثر من ذلك عنها، فإن التمثال النصفى نفسه، والمحاط بالفرو بدا لى بعد ذلك مجرد خداع بصرى.

وعلى الرغم من ذلك فإنه يوجد فى حياتنا روابط غير واضحة، وهذا لا يعد نكتة غير مفهومة، وهذا ما اتضح لى تدريجيًا.

ينبغى أن أراها مرة أخرى، أرملة النقيب، حتى ولو فى ظروف مختلفة تمامًا. ما يقرب من ثلاثة أسابيع بعد ليلتنا أقف ثانية فى محطة الضواحى. وسألتنى الفتاة الوفية: هل تريد بيرة طازجة؟

لا، شكرًا اشربيها أنت! هذه القمامة.

إننى ذهبت إليها مرة أخرى، هذا كان خطأ أبى، نعم، لقد كان خطأه.

السيد والدى! هذه الفكرة جاءتنى من عنده. هو وليس أحدًا سواه.

ذراعى لم ولن يتحسن، ومصيرى محتوم؛ وذلك لأن كثيرًا من أعصابى قد تمزقت.

فى اليوم التالى لتلك الليلة، ذهبت إلى الطبيب، وقال: ما هذا؟ العظام أصبحت شديدة السوء، فأصابنى الذعر. هل قمت برفع شىء ثقيل أو حمله أو سحبه؟

لا، جاوبت وأنا مضطر لأن أبتسم ابتسامة غير حقيقية، على الرغم من أن ذلك يثير البكاء أكثر. قالها الطبيب، ثم ذهبت إلى الرجل الذى بجانبى. كان ينبغى أن أوقظها. لا تعتمد على هذا الذراع أبدًا.

لقد كنت أود أن أتركها تنعم بالراحة، عندما غفت ونامت على هذا الذراع... لقد التفت حولى الآن؛ لأن الجحود والنكران من صفات الإنسان. أكان يجب علىّ أن أترك الكلب الذى كان جالسًا فى غرفة نومها يحوى؟

لقد كانت ثقيلة؟

إنها ثقيلة كالعجل.

بالتأكيد سبعة كيلو جرام.

أنا لا أريد أن أعاتبها، إن ذراعى لن يشفى أبدًا منذ أول أمس، وأصبحت على يقين ثابت بهذا التأكيد الطبى. ولكنها تتحمل جزءًا بمقدار حجر من الأحجار الكبيرة، الذى هرس ذراعى هرسًا شديدًا

نعم؟ لقد كان قرارًا قاسًا، إنه لا يستطيع العودة إلى الجيش مرة أخرى، بعد التأكد من عدم صلاحية ذراعى. إنه قرار قاس، ولكن القرارات التالية تجعل الإنسان صلبًا.

ولم يرمش لى جفن، ولم تتحرك لى جارحة، وقلت: الوداع أيتها النجوم الفضية. بالكاد أستطيع أن أرتدى زى الجيش مرة ثانية، ليس طويلاً (بعد الآن). فقط للإجراءات المؤقتة.

لا أعلم ما سيحدث بعد ذلك.

إننى أعلم أن الناس الطيبين لا يحصدون شيئًا جيدًا. يجب أن يكون المرء شريرًا وجافًا وباردًا.

لا تبال بالآخرين ولا تضعهم فى حسابك لأبعد الحدود! لأنه لا يوجد أحد يهتم بشأنك حتى ولو تركت الناس ينعمون بالهدوء. إذا استيقظ ضميرك فمزّقه ؛ حتى يكون لك مستقبل.

أى لو لم أفكر فى أن أنقذك أيها النقيب؟

هذا الفارس القديم، والذى تحول إلى النعومة والضعف عندما رأى الأطفال المقتولين.

إنه لا يصلح لهذا العصر. لو كنت أعلم بهذا من قبل لكان ذراعى سليمًا الآن، فإن من لا يصلح للعصر لا يجب علينا حمايته. من الأفضل له أن يعلق نفسه فى مكان عال؛ حتى تأكله الغربان.

هل تسمعنى أيها النقيب؟ هل تسمعنى من تحت التراب؟ ابق أنت تحت التراب! ولكنى أريد أن أحيا. بحروف من الكرامة محفور اسمك فى سجل الأبطال لشعبنا، بلى أنا سوف أغير ذلك؛ لأنك كنت

نقطة ضعف، ولم تستطع أن تفعل شيئًا من أجل الوطن عندما رأيت بعض نسوة الأعداء مقتولين أيها الضعيف. أنت مثل حبى يشمئز من شعبه. من الذى سيعتنى بى الآن؟ أعطيتك مستقبلى، ولكنك تركتنى وحيدًا، ولن يهمك وأنت فى قبرك أن أشبع أو أجوع.

اظهر الآن ولو على شكل شبح! وأخبرنى ماذا يمكننى أن أفعل الآن؟ ولكنك لا تفكر فى أى شيء؛ لأنك ترقد مرتاحًا، وكأنك لم ترتكب جرمًا.

لو أننى لم أعد أرملتك، لكنت الآن قد أذعت سر خطابك فى كل الدنيا. الكل يجب أن يعرف أنك جبان، وسعيت للموت؛ لأنك منحط ووغد. يجب أن نخرجك من مقابر الأبطال، ونرمى بك إلى الركن المجهول؛ حيث يقال للمجرمين: عمتم مساءً. أريد أن أحكى خطابك لكل من يمشى فى الطريق. ينبغى أن يعلم الجميع أى نوع من البشر كنت.

بلى انتظر، انتظر!

فأرملتك النقية بالطبع سوف تنكر فى الحال كل شيء، كل يمين كاذب ستحلف به. من الواضح أنها قامت من قبل بحرق الخطاب، فهى بالفعل ذكية. وسوف أقف إذن كالكلب الأحمق، وربما يحكم علىَّ بتهمة الوشاية العلنية. انتظر، انتظر يا صديقى العزيز!

لا تتسرع، فكر فى كل شىء جيدًا قبل أن تفعل شيئًا! فأنت تقف الآن على البداية، ولم تعد تنتظم فى الطابور. فاليوم لا يقف أحد بجانبك، لا يمينًا ولا يسارًا. أنت تقف وحيدًا، أنت فقط.

احسبها هذه المرة بالعقل. خذ قلمًا رصاصًا بيدك، وراجع حساب ما أبقيت. لم يتبق سوى إنسان واحد. والدك، والدك الحبيب. الذى أتى بك فى الدنيا دون أن يسألك إن كنت ترغب فى ذلك. يجب عليه أن يساعدك، حتى ولو عرق دمًا من أجلك. أنت لا تحبه. هذا لا يهمنى. ولكن استغله!

كن لطيفًا معه! لا تتحدث عندما يصف صناعة الأسلحة بالصناعة الحمقاء.

من يعرف، ربما يكن لديه حق بخصوص هذا الموضوع.

فإن من يصنع السلاح، لا يهتم بمن فقد ذراعه، فإنهم لا يتوقفون، بل يستمرون فى صناعة السلاح. هذه الصناعة لا تهتم بمعاق على المعاش، ولا تعتبر بالنسبة لهم مشكلة.

لا تخالف والدك؛ فهو الذى أتى بك إلى الدنيا!

آه، لو أننى لم أرد إنقاذ هذا النقيب على الإطلاق!

هذا الفارس القديم الطراز بمظهره الغريب الأطوار.

لقد كان رقيق المشاعر، ولكنه أصبح حقيرًا عندما رأى ذات مرة مكان الأطفال الأموات. بالفعل، فهذا لا يتناسب مع عصره. لو أنت عرفت هذا مبكرًا، لكان الآن ذراعي سليمًا!

ولكن لن ينبغى للمرء أن ينقطع عندما يكون ذلك غير مناسب لعصره.

فى عام ١٩١٧.

كان ذلك فى أعياد الكرنفال؛ لأننى رأيت نور العالم فى الخريف.

وأنت تستطيع أن تضغط على والدك العزيز. إذا ذهبت إليه، اركع تحت قدميه ووقره، واطلب منه أن يرضى عنك، وسوف يعطيك نقودًا. اذهب لابد أنك تعرف هذه الحانة التى يكسب فيها والدك لقمة عيشه، اذهب! لقد ذهبت فعلاً إلى والدى حتى حدود المدينة، المساء يلقى بنفسه على الأماكن، والليل يدخل حزينًا على الأزقة دون أى ضوء فى السماء، كما لو كانت جميع النجوم الجميلة سقطت من السماء. الآن لابد أن أنحنى إلى اليمين ثم إلى الشمال، ثم أعبر الجانب الآخر، هناك بجانب معمل الألبان، وبجانب الأستوديو الفوتوغرافى. هناك سوف أقابل والدى الحبيب.

وقفت أمام المطعم الصغير، وقرأت اللافتة التى كتب عليها "إلى مدينة باريس". مدينة باريس...؟

فى المطعم نافذتان وكانتا مغطيين بالستائر وأطللت من خلال فجوة، فوجدت الضوء خافتًا ورماديًّا ورأيت قليلاً من الزبائن، كانوا يدخنون بشراهة، لقد أتى.

ها هو. أبى...

حضر ومعه كأسان من البيرة، وقام بوضعهما على المنضدة، وكان يجلس ثلاثة من السائقين يلعبون الزهر. أبى لم يتغير، ولم يصبح عجوزًا، وتصورته كما لو كان يبدو أنه يعرج قليلاً.

هل يكون بالفعل قد شفى؟

أو تكون فقط القوة بحكم العادة، إن الإنسان بمرور الوقت يتعود عليها، أو يكون العرج موجودًا فقط فى خيالى. أحد السائقين يدفع الحساب وأبى أخذ المال وانحنى بأدب. نعم. نعم.

فإنه العجوز نفسه الذى يحب جمع البقشيش.

أنا متأكد من أنه يكسب جيدًا. من البقشيش يستطيع المرء أن يوفر جيدًا، وربما اشترى قصرًا. إنه يعيش مرة أخرى عيشة عزوبية رغدة مع النساء والقمار، كما لو كان الحال قبل الحرب العالمية. لقد انتهى. قد مضى هذا الوقت.

وكان هذا منذ ثلاثمائة عام. كم عمرك الآن؟

تلفتُ حولى ودخلت مدينة باريس، جلست بجانب الباب، وأبى لم يعرفنى، وظن أننى زبون عادى، اقترب منى حتى لم يبق بينه وبينى إلا حوالى ثلاث خطوات فقط.

وتعسرت أنفاسه، وتبسمت بتودد أخيرًا. وجد ما يقوله، فسأل؟ أنت؟ قلت: نعم، أنا. ثم نظر، ونظر إلىَّ نظرات غامضة، ثم وقفت، ومددت يدى إليه مصافحًا، وقلت: مساء الخير، يا أبى!

ببطء شديد وبهدوء مد يده إلىَّ واحتفظ بحرص على يدى، كما لو كانت هشة، وحاول تدريجيًا الخروج من تأثير المصادفة، ثم قال: جميل منك أنك ما زلت تذكرنى.

ماذا أحضر لك؟ ماذا تريد أن تشرب؟

أجبت: أى شىء تحضره.

ابتسم فى خيلاء، سوف أحضر لك شيئًا مخصوصًا مصفى تمامًا، بشرط أن تحكى لى كل شىء من الألف إلى الياء، أومأ برأسه، وسمعته يقول: شيئًا لابنى، وفجأة سمعت صوت نسائى.

انحنت ناحيتى عجوز سمينة من على المنصة، وتفحصتنى بشىء من الفضول. كانت سيدته وولية نعمته. انحنيت لها وأومأت لها بالتحية، ونال هذا رضاها. وجاء أبى ومعه كأس الخمر. كان يود أن يجلس، ولكن هذا لا يصح؛ فهو فى العمل. وقلت: فى صحتك! قال: بل فى صحتك أنت! وجرعت الكأس مرة واحدة.

ها ها، ضحك أبى، وقال: انظر كيف يشرب؟ نادت عليه رّأس الخنزير قائلة: فرنس، أحضر له كأس الجنود الشجعان! فلا يزال يشعر بالعطش.

فرنس هو أبى، وقد أحضر لى كأسًا خاصًا فقط خاصة، وانحنى لى، ثم همس: أنتِ استوليت بالفعل على قلب التنين فى أثناء العاصفة. ما هذه السيدة إلا البخل فى شكل إنسان، ولكنه قال: أنت بالفعل ابنى، بكبرياء نظر إلى الناس على المنضدة التى بجوارى، وفجأة وقف تركيز عيناه على فتى، وقال: معنا هنا جندى بثلاث نجوم. قاطعته، وقلت: ليس لوقت طويل.

فبدا وأنه تلقى ضربة على رأسه.

ثم حكيت له عن مستقبلى العسكرى، باعتبار أننى ما زلت جنديًا، وقلت له إننى أول وأدق رامى مدفعية فى السرية، وأصيب الأهداف دائمًا. لقد قدمت نفسى تطوعًا لحركة التطهير للناس المتوحشين والسفلة.

ثم قاطعنى قائلاً: هل كنت معهم؟ قلت: نعم، بالطبع.

آه. ماذا يعنى بكلمة آه؟ لم أفهم الأمر، وذكرت دون احتراس البلدة الصغيرة التى كنا نريد احتلالها، هى بالفعل بلدتنا التى...

نظر إلىَّ بعين الشك والظن، ثم أصبح كل شىء حزينًا، حزينًا جدًا.

وبينما كنت ألاحظه بحذر، أخذت أحكى له أكثر. واصلت كلامى عن جنود الطيران الشجعان، الذين لا أستطيع أن أصفهم، حكيت له عن دقتهم فى إصابة الأهداف، وعن القرى التى قمنا بتحطيمها بسبب حثالة القوم وعدائهم الخسيس لنا وحياتهم المقززة وعششهم القذرة وكلابهم.

وقف مندهشًا بجانبى، وفجأة ضايقنى بقوله: إنه لا يستطيع الجلوس، وحاولت أن ألخص الموضوع وأحدثه عن جروحى الخطيرة؛ لأننى كنت أريد أن أحمى قائدى، ولكنى أخفيت رسالة القائد، وبالطبع لم أذكر أى شىء عن أرملة النقيب أو عن هذه الليلة؛ لأننى مثل أى محب، لن أذكر أى اسم ولكنى أتحدث بصفة عامة.

هم، هم. أيها الشاب المسكين، ذو الذراع المحطمة، تعنى أنك سيئ الحظ، ولكن عندما تغادر المستشفى غدًا أو بعد غد، لابد أن تعرف دائمًا أنك تستطيع أن تعيش عند أبيك. هذا عظيم. قلت: هذا لطف منك. قال: هذا ليس لطفًا.

وقاطعنى مرة أخرى فى أثناء الكلام، وبالطبع لم تحصل على راحتك بالكامل؛ لأننى الآن أسكن فى غرفة أخرى.

غرفة أخرى؟

نعم على الرغم من أنها صغيرة. صغيرة فى الحقيقة عن الحجرة التى كنت فى الماضى؛ لأن الوضع الاقتصادى العام غير مستقر. وغير وردى على الرغم من أننا استولينا على هذا البلد.

نحن: هل استوليت أنت على هذا البلد؟ عمَّ يتكلم هذا الشخص؟

. ماذا أخبر هناك ما الذى جعله يتكلم عن هذه الأدوات، ولكن كل التيارات المزعجة والصعوبات. ما هى إلا بالتأكيد أسباب طبيعة مؤقتة بالفعل سوف نجنى ثمار نصرنا واعتمدنا على ذلك. يا رب السماء، هل كان يعنى هذا أولا. بقصد كل شىء بالنسبة لى مجرد غناء. إنه لعجب أن تتحدث هكذا. وقلت أنا: لماذا؟ كيف؟ فى الماضى كنت تدعى أن كل نصر ما هو إلا هزيمة، لا يستفيد منها إلا السلطة. إما النصر و إما الهزيمة، فهى وبالتحديد الصناعات الحربية. هراء، فاطعنى بشدة. بالنسبة لنا الموضوع الآن لا يعنى أى مشكلة، علاوة على ذلك نكون والحمد لله خارج كل هذا منذ أول يناير. تقع صناعتنا الحربية تحت سيطرة الدولة وإشرافها. فالأمر قد تغير كلية. اليوم يجنى كل الناس ثمار النصر. أنا، وأنت، وجميع الشعب. لماذا تنظر لىَّ هكذا؟

نظرت إليه بغباء؛ لأننى كنت أفكر كيف أنت؟ وما أنا؟

أنا ضحيت بذراعى، وأنت تمتلك حجرة صغيرة.

لا، أنا لا أريد التفكير؛ لأن التفكير يتعب.

ولكن هذا لا يفيد، ولا يساعدني في شيء. فقد راودتني وجلست معي على منضدتي، وعيناها لا تفارقاني، بينما كان أبي مستمرًا في الحديث مثل النهر الكاسح. هوِّن على نفسك! ليس هناك إنسان خالي البال.

غنيًا أو فقيرًا. هكذا همس لي النهر بهدوء، والقضية تبتسم دون أن يراها أحد. ثم سندت ظهرها على المقعد مثل المدرس المستهتر في المدرسة. وقالت: الآن أجب يا بني!؟ مرت عليه لحظات، وكل شيء أسود أمام عقلي، وسمعت صوت أبي من بعيد يقول: صحيح أنك لم تتعلم شيئًا. وهذا شيء فظيع ويسيء لك؛ لأنك اليوم أصبحت عجوزًا لأن تبدأ كصبي.

ولا تستطيع حتى أن تصبح عاملاً بسيطًا؛ لأنك فقدت قوة ذراعك. ولكن مئات الآلاف من الآخرين لهم ظروفك نفسها، فأنت الوحيد الذي يجب أن يعي هذا. إنك للأسف طفل الحروب، الذي لم يتعلم شيئًا على الإطلاق، لقد فاتك كل شيء تقريبًا، ضاع عليك، سواء أكان متقدمًا أم كان متأخرًا، ولكن قف انتظر. لقد طرأت على ذهني فكرة، يمكن أن تكون المخرج من هذه المتاهة. اسمعني! فأبوك ليس غبيًا. أنا أظن أنه يجب أن توفر لك الحماية.

حماية! نعم! ربما يساعدنا الرب، ونجد شخصًا يستطيع أن يساعدك. هل نعرف أى أحد.

لا أعرف.

ضابط أو ما شابهه؟ لا.

أنا أعرف شخصًا، ولكنه ليس بضابط ولكن امرأة، أرملة قائدى، هل تعرفها؟

نعم، لقد قدمت إليها خدمة ذات مرة. جميل جدًّا، إذا سوف تساعدك. كان يجب أن تساعدك. انتبه يا بنى كل ما يريد الإنسان الحصول عليه فى الحياة لا يتم إلا عن طريق النساء.

وهكذا حدث أن ذهبت مرة أخرى إلى أرملة القائد. كانت قلقة جدًّا، تركت الباب مفتوحًا، ولم يطمئن قلبها إلا عندما عرفت لماذا جئت لها، ووعدتنى بأنها ستساعدنى؛ لأنها تعرف أخ أحد الموظفين بمجلس الوزراء. ربما يستطيع أن يجد لى فرصة للعمل، أو للخدمة فى إحدى المصالح الحكومية، و فى أثناء هذا الوعد كنت ألاحظها، وأدهشنى كثيرًا كيف أننى لم أعجب بها؛ لأنها فى نظرى تبدو أصغر من سنها، حوالى عشرين عامًا. لقد تهيأ لى ذلك.

الفصل الثامن

الحيوان المفكر

أسكن الآن مع والدى، الذى يخرج فى منتصف الظهيرة ليعود إلى المنزل بعد منتصف الليل. وتبدو حجرته خاوية فى محتواها؛ من دولاب ومنضدة وسرير وكرسيين وأريكة مهترئة، وفوق هذا فإن هذه الأريكة القديمة صغيرة جدًّا بالنسبة لى. ولكنى أقضى منتصف يومى فى سماع الموسيقى.

فى الحجرة المجاورة تسكن بائعة بلا عمل عندها جهاز (جرامفون) قديم، ولديها ثلاث أسطوانات للرقص الصاخب، ودائمًا أسمع الأسطوانات نفسها، ولكنها لا تزعجنى؛ فأنا أسعد بسماع أى شىء يبهجنى.

أقرأ فى كتاب عن (التبت)، مملكة الأسرار على أعلى قمة فى العالم. والدى حصل عليه من أحد زبائنه الدائمين، و الذى لم يستطع فجأة دفع حسابه؛ حيث فقد وظيفته بسبب اختلاسات لا تذكر. هذا الكتاب ثمن وجبة صغيرة بدون فطيرة الفواكه.

هذه البائعة ليست جميلة، ولذا سيكون من الصعب أن تجد عملاً، وإذا أرادت أن تنجو من الموت جوعًا، فستضطر أن تبيع نفسها.

إنها لم تحصل على الكثير؛ ففى الحقيقة هى نحيفة جدًّا، على الأقل بالنسبة لذوقى؛ فأنا أفضل الممتلئة.

يُنشر فى الصحف لا توجد عندنا بطالة، ولكن هذا كله أكاذيب؛ لأن الصحف كانت تساند العاطلين ولكنها بعد فترة قصيرة لم تعد تساندهم. وبالتالى فإنه لن يذكر كعاطل، وأيضًا حتى لو انتحر؛ لأنه لم يجد ما يأكله، فلن يرد له ذكر فى الجرائد؛ لأن ذلك ممنوع نشره منعًا باتًّا. أما إذا سرق شيئًا فيسمح بالنشر، بل وفى عمود تحت عنوان (من عدالة الحياة).

لا توجد عدالة. وهذه هى النتيجة التى توصلت إليها.

ولن يستطيع قادتنا تغيير شىء من ذلك حتى ولو تعالوا وأجادوا فى مجال السياسة الخارجية. الإنسان حيوان، وكذلك القادة، فهم حيوانات، حتى لو كانت لهم قرائح مميزة.

لماذا لم أكن موهوبًا؟ ولماذا لم أكن قائدًا؟ من الذى يحدد للإنسان ماهيته؟

من يقول لشخص إنك ستصبح زعيمًا، وللآخر أنت حقير، ولثالثة أنت نحيفة وبائعة بلا عمل، وللرابع أنت نادل، ولخامس أنت رأس خنزير، وللسادس أنت أرملة ضابط، وللسابع أعطنى ذراعك.

من هذا الذى لديه الحكم والقوة؟ لا يمكن أن يكون هذا هو الرب الحبيب؛ لأن القسمة جائرة جدًّا، لو كنت أنا الرب الحبيب،

لجعلت الناس جميعهم سواء، الكل متساويون فى الحقوق والواجبات، واجبات متساوية!

ولكن هكذا العالم حظيرة خنازير.

تقول الراهبة البدينة فى المستشفى: إن الله يقدر لكل شخص شيئًا ما. واليوم يؤسفنى أننى لم أجب عليها. وماذا عنى؟ وماذا ينوى إلهك الحبيب أن يفعل معى؟ ماذا اقترفت من ذنب حتى يفسد علىَّ المستقبل؟ ماذا يريد منى؟ ماذا فعلت له؟ لا شىء. لا شىء على الإطلاق.

فأنا دائمًا أتركه فى هدوء.

ما زال (الجرامفون) يدور؟ وأنا أقرأ فى الكتب عن (التبت)، عن بحر تشارجو- تسو المالح، ولكنى دومًا أشرد بأفكارى.

لم يعد ينتابنى الخوف من التفكير منذ لم يبق لى شىء آخر. وأنا سعيد بأفكارى، حتى لو اكتشفت الصحارى؛ لأن التفكير لا يتركنى وحيدًا، ولأنى كثيرًا ما أجد ذاتى، ولكنى أجد أن أغلبها حقير.

مسموح لى أن أرتدى الزى الرسمى، ولكنى ليس عندى بذلة أخرى. العام الذى قضيته فى الثكنة كان عصرى الذهبى. ربما لو فرض أن أعطيت أحد المتسولين الخمسة قروش، لكانت ذراعى اليوم سليمة، لا، إنها فكرة غبية. ابعد عنها!

أبى يقول: لقد انتصرنا، كما لو أنه كان موجودًا معنا. وقديمًا لعن الحرب العالمية؛ لأنه كان موجودًا فيها، ولكن أخبار الحرب نقلته إلى غمرة الحماسة.

حقًّا، إنه كان، وسيبقى رجلاً كاذبًا.

أنا لست متضايقًا منه، حتى عندما فكرت فى هذه الحجرة – فمن يكون فقيرًا يسمح له بالكذب. هذا من حقه، وربما حقه الوحيد. اقتربت من النافذة ونظرت منها.

على الطريق يمشى طفلان بخطوات صغيرة، وهكذا كنت... مر راكبًا دراجة، ثم جاءت سيدة عجوز، ورجل معه حقيبة ظهر، وسيد بسيجار، وعربة نقل.

كل هذا يخص شعبك.

انظر إلى وطنك؛ لأن كل هذا مِلك.

كل هذا ينبغى أن يكون لك.

أنت دافعت عنها، والآن أنت مشوه. دهشت. مشوه؟

من الذى يهددنا حقًّا؟

تلك البلد الصغير؟ شيء مضحك!

رأى سائق الدراجة العربة النقل، وبدأ يترنح ونزل من العجلة على سبيل الاحتياط؛ لأن الزقاق ضيق. وأيضًا وطنى بدأ يتأرجح؛ لأن عربات النقل يزداد حجمها.

يقول أبى: تأممت الصناعات الحربية. وأيضًا الدولة تربح، والحكومة هى الشعب.

لماذا لم أكسب شيئًا؟

هل أنا لا أنتمى أيضًا إلى شعبى؟

ومع ذلك فأنا أخسر فقط.

انتظر فقط، وقريبًا لا يوجد ما يضحك!

إن الضوء يصبح باردًا، عندما يفكر المرء.

يبدأ قلبى فى الشعور بالبرودة.

الصحف أخبرتنا بقدوم الصقيع.

الشتاء سيأتى سريعًا هذا العام.

أنا، وأبي بدأنا التدفئة، بالنسبة لى فإن الجو بارد دائمًا، التدفئة لا تكفى، وأنا لا أنام جيدًا، والنافذة مغلقة. مما يؤدى إلى مشادات متكررة. أسكن مع والدى منذ أسابيع، ولدى هذا الشعور الخفى، أنه سيتنفس الصعداء، لو أننى رحلت عنه. لم يتفوه بشىء من هذا القبيل.

فقط يصوب سهامه المسمومة إلىَّ خاصة عندما أستعمل شفرات الحلاقة الخاصة به.

ولكن ماذا ينبغى علىَّ أن أفعل؟ فأنا لا أملك حتى شفرات خاصة بى. هل علىَّ أن أترك لحيتى تنمو؟

أبدًا، ولا مرة.

فأنا أحبذ العيش بذقن ناعمة، ناعمة جدًّا.

أنا أفضل ألا أدخن شيئًا. لم أعد أنظر إلى الخارج ولكن تمددت على الأريكة، أما الكتاب الذى يحكى عن إقليم التبت فتركته على المنضدة. اليوم لم يعد يثيرنى البحث عن المناطق البيضاء على الخريطة، بل مناطق أخرى! سأتنازل برضى عن كل البعثات الاستكشافية، عندما يصلنى من البريد خطاب صغير من عدة أسطر، يجب أن يكون مختصرًا وفى أسطر قليلة: "لقد تم استدعاؤك للحضور يوم الخميس المقبل بين العاشرة والحادية عشرة؛ لإبراز وثائقك العسكرية والمدنية لتعيينك معاونًا".

التوقيع غير واضح.

هذه الشخصية صاحبة التوقيع المبهم، ستختبر أوراقى، ثم تقول: "أنت محظوظ؛ لأن لديك حماية رفيعة المستوى. وبذلك أصبحت موظفًا حكوميًّا بدخل ثابت". تهانى لك. يبدو أن الوظيفة سهلة. سأذهب ثلاث مرات إلى مكتب البريد؛ لأحضر الخطابات،

وأتسلمها. هذه هى كل وظيفتى. الآن لم أعد أسكن مع أبى، ولكن أسكن فى غرفة منفردة فى مبنى المصلحة مباشرة؛ واسعة منيرة، وتطل على حديقة جميلة. يتسلق فيها اللبلاب على الأشجار القديمة، الزى العسكرى معلق الآن فى الدولاب، واشتريت بذلة زرقاء بالقسط؛ لأنى أستطيع تحمل قسطها وثمنها. وتبدّل الحال عما كان فى الماضى. ما زال يدور (الجرامفون).

متى تبيعين نفسك، أيتها الجارة العزيزة؟

لن تحصلى منى على شيء. للأسف إن الممرضة البدينة ليست موجودة الآن. كنت سأحكى لها الكثير، وسأسألها لماذا تعتنى بالمرضى؟

يوجد أصحاء كثيرون. صلى من أجلهم؛ حتى لا يبيعوا أنفسهم، ودعى المرضى مع مرضهم. ماذا سيكون ردك؟ وماذا ستجيبين؟ ستقلى: أحب أعداءك! ولكن أكره الخطأ، والضلال . ماذا يكون الضلال؟ أنا أكره هذه الكلمة؛ لأن المرء لا يعرف ما هو الضلال؛ ولأننى أقف دائمًا أمام قائدى، ويسألنى ماذا حدث؟ أطع الأمر، واستدر!

لا، لا فكر مرة أخرى. لا تخف! لا تكن جبانًا!

الجو يصبح باردًا. إنك لا تعد تشعر بشىء، لا ألم، ولا وخز. ابعد! ابعد! ما الذى يقلقك؟

ما الذى يزعجك؟ اسمعه مرة أخرى. كما لو كان يقترب منى. ألديه حق؟ ساءلتنى نفسى: ألديه حق أن يتقزز من وطنه؟ نعم، أم لا؟ مؤكد أنه نذل، ولكن ألديه حق؟ أيمكن أن يكون محقًا؟

ممثلاً عندما راقبنا وقتذاك؟ عندما ألقت طائراتنا بقنابلها على مستشفى للأعداء، وعندما تطايرت جثث النزلاء بالمدافع الرشاشة. عندئذٍ استدار قائدنا فجأة، وبدأ يمشى ذهابًا وإيابًا خلف صفوفنا، ثم ثبت نظره إلى الأرض، كما لو غاص فى أفكار عميقة. فقط وقف أمامنا، ونظر إلى الغابة الصامتة. ثم أشار برأسه، كما لو يقول: نعم، نعم.

أو عندما احتللنا المنطقة السكنية، وعندها وقف فى الطريق، وقد شحب لونه تمامًا، وصرخ فينا: الجندى الشريف لا ينهب. وكان عليه أولاً أن يستوضح من الملازم الثانى، ذلك الكلب الصغير، أن النهب ليس مسموحًا به فقط، وإنما أوصت به المناصب العليا، وأمرت به المراكز العليا.

ثم ذهب عنا القائد مرة أخرى.

وسار محازيًا للطريق، ولم ينظر يمينًا ولا يسارًا، وفى النهاية وقف فى الطريق وأنا أراقبه. وجلس على صخرة، وكتب بسيفه على الرمل. من الغريب أن أفكر فجأة فى القصر الملعون، وفى الفتاة

الجالسة على الخزنة، والتى كانت تخط بعض الخطوط. هل كانت لا تريد أن ترانى؟

هل حقًّا ما زال هذا القصر الملعون موجودًا؟

غريب أننى لم أفكر فى هذا القصر أمدًا طويلاً. طبيعى النافذة عليها الشبك الحديدى والتنين والشياطين ينظرون إلى الخارج.

لقد كِدتُ أنساه، ما زلت أريد الذهاب إلى هناك. كيف يكون الحال؟ لقد اشتريت يومها كأسين من الآيس كريم. وكان القمر منيرًا، والهواء عليلاً، والقطط تعزف الموسيقى.

ولكنى لا أحب الآيس كريم. وربما تكون جميلة وهى جالسة، أنا أعرف عنها ما ظهر منها من شباك الخزينة. ربما تكون مقوسة الساقين. لا، لا، هذا غير ممكن.

تذكر فقط. لقد كانت ترسم خطوطًا ، وعلى مدى لحظات كنت بعيدًا عن كل شيء، عن العالم كله وأفكر. لم يكن هناك إلا صوت الموسيقى القديمة الهادئ المنبعث من القصر الملعون.

ألا تريد أن تكتب لها؟

الآنسة الغالية: أريد أن أكتب لك. بالأمس كان الخميس، واليوم الجمعة، ربما أعود إليك. هذا ما لا أعرفه، ولكنك ستبقين دائمًا سطورى الغالية. لابد أن أضحك. غدًا سأذهب إلى هناك.

الفصل التاسع

فى مملكة الأقزام

لقد أمطرت ثلجًا الليلة، وأصبح كل شىء أبيض. وأنا ذاهب إلى قصرى الملعون. المدينة هادئة بسبب تساقط الثلج؛ لدرجة أن الإنسان لا يسمع خطواته، وفى أثناء سيرى على الطريق لاحظت ثانية أن صورتى تنعكس على الثلج.

وأسير الآن عبر محلات جزارى لحم الخنزير والمكتبات ومحال اللؤلؤ و أدوات التجميل.

ذات مرة أردت أن أمشى على كل شىء وأحطمه كالأحمق. وأنا أريد الآن أن آكل لحم الخنزير، وأقرأ الكتب، وأهدى اللؤلؤة وأدوات التجميل إلى شخص ما. لكن من؟

ربما للتى تعمل على الخزينة. وربما يأت هذا الوقت.

سوف نرى!

فى الحقيقة أنك جيد، سوف نرى!

واتجهت إلى الميناء. الشارع العريض الملىء بالأشجار يتسع أكثر ويمتلئ بالصخب. حقًّا هنا الحياة متحركة، صيفًا وشتاءً. ولقد أفسح لى البحارة فى الزى الأصفر والأسمر الطريق؛ لأنى ما زلت أرتدى الزى العسكرى ذا الثلاثة نجوم الفضية؛ أى لو عرف هؤلاء

الغرباء أنى لا شىء! يمينًا وشمالاً تبدو المعالم؛ القرود الصغيرة والكبيرة وهى تتجمد فى صعيد واحد. آلة لعب القمار، الشاة ذات الأقدام الخمسة، والعجل ذو الرأسين. لم يغلق أحد محله على الرغم من البرد القارص القادم من ناحية البحر.

كل شىء ما زال موجودًا؛ ضجيج الناس الذين يركبون القطار، وخرجت سيدتان من سرادق ركوب الخيل، إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة.

وهما تعدّلان ملابسهما، بعد أن ترجلتا من على ظهور الخيل. حقًا لقد أعجبت بهما، لكن كان معهم أصدقاؤهما.

رجل صغير كالفأر.

بقى كل شىء على ما هو عليه، ما زاد فقط هو سقوط الثلج.

ذلك الفأر هو مواطن من الشعب وأعطيت ذراعى دفاعًا عن هذه الزبالة. وكان لابد أن أبتسم بشماتة؛ لأنى عرفت اليوم لو أننى قلت إنى ضربت هذا الفأر بذراعى على رأسه حتى هلك.

وتجولت فى المكان سريعًا؛ لأن القصر يقع فى نهاية المطاف. يوجد على اليمين إنسان برأس أسد ويسارًا امرأة بلحية، وهناك بالضبط ما زال بائع الآيس كريم واقفًا.

وسوف أشترى منه قطعتى آيس كريم، على الرغم من أننى لا أحبه الآيس كريم. لكن نحن الآن فى الشتاء، ولم يعد يبيع الآيس كريم، بل لوزًا محمصًا. لن أشترى لوزًا على الرغم من أننى أحبه جدًّا. هذه المرة أذهب إليها مباشرة. انتبه! أنا قادم.

لكن ما هذا؟ أنا أتعثر.

أنا أتوقف، لقد توقفت فجأة كأنى وجدت حائطًا أمامى. ماذا حدث؟ ما هذا؟

قصرى الملعون؟ لقد اختفى. أين ذهب؟ لقد اختفى تمامًا.

لكن أين ذهب؟!

توجد هنا الآن أشياء أخرى؛ ساحة للسيارات أو أشياء مثل هذا. أين خطوطى الجميلة؟ الخزينة بها آنسة أخرى.

ومالت عينى إليها وشعرت بألم كبير فى قلبى. لكن يعز الأمر علىَّ حينذاك، كما لو أنى خسرت شيئًا لم يخطر على بالى. ويتساقط الثلج بهدوء وتوجد لهفة فى نفسى. نعم كان الربيع، وكان لابد أن أذهب.

لأن الوطن ينادى، ولا يراعى أى حق للحياة الشخصية لأطفاله. حقًّا؟

هبت الريح باردة وجافة، ولم تتجمع القطط، وذراعى المكسور لن يشفى أبدًا. أين آنستى؟ وواصلت السير واصطدمت قدماى.

بماذا اصطدمت؟

لا شىء. لا يوجد شىء هنا. وتبسمت فتاة أخرى؛ لأنى تعثرت.

لقد رأت ما حدث، وما زالت تبتسم وتنظر إلىَّ. إنك لا تعجبينى.

أريد الذهاب، لكنى لم أبتعد إلا خطوات ووجدت نفسى فى الشارع، وهناك يقف بائع الآيس كريم، واشتريت منه بعضًا من اللوز المحمص. فاللوز لذيذ جدًّا.

ونظرت إلى ساحة السيارات؛ حيث يركب الناس سيارات صغيرة يقودونها فى دائرة أو كلا على حدة، وسألت بائع الآيس كريم هل تتذكر وجود القصر الملعون هنا ذات يوم؟

فأجاب قائلاً: نعم، ولكن من زمن. ولماذا لم يعد موجودًا الآن؟ إنه لم يعد يدر ربحًا كثيرًا. وسمعت بائع الآيس كريم يقول: لقد كان من الطراز القديم ولم يعد يتناسب مع عصرنا هذا. وانتبهت إلى ما قال؟ ليس فى عصرنا؟ لقد سمعت هذا مرة من قبل. أين سمعتها؟ نعم، النقيب الذى كتب هذا فى خطابه. لقد قرأتها لأول مرة دون

وتوش. أنا لا أناسب هذا العصر. ما معنى هذه الكلمات؟ لماذا لا يتناسب قصرى مع عصرنا هذا؟

هل ساحة السيارات أفضل وملائمة؟ هذه الساحة المزعجة حيث يقود كل واحد سيارة ويدور بها، ويتخيل أنه يمكن أن يسافر فى سيارته الخاصة هذه إلى أى مكان يشاء، مع أنه يدور فى دائرة مغلقة.

يا له من غباء! هنا كان التنين والعفريت وأناس آخرون! وتراءى لى الهيكل العظمى، فأنا ما زلت أتذكره. وهذه الظلمة التى يمكن للمرء أن يتعلم فيها معنى الخوف والفزع، عندما يدخل الإنسان فى اللاشىء يعرف الله. إن هذا ما أعجبنى، على الرغم من أن به نوعًا من الحماقة، لكنها حماقة جميلة. وأنا أيضًا لم أتناسب مع هذا العصر؟ ما هذا إلا سخف! أنا إنسان موجود فى هذا العصر، ولكنى لست مقتنعًا بهذه السيارات ولا بالدوران فى دائرة. بالطبع أنا أتوافق مع عصرى، ولكنى لا أتناسب فقط مع هذه السيارات الحقيرة؛ فأنا لست معتوهًا! كفى تأملاً! كفى!

وألقيت اللوز على الأرض، ثم ذهبت مباشرة إلى ساحة السيارات. طلبت من الآنسة التى تعمل على شباك التذاكر تذكرة دخول.

وقلت لنفسى: إنها مجرد تجربة، فأنا آخذ معلومات فقط. قالت: تفضل! ثم قلت لها: فيما مضى كان يوجد شىء آخر هنا. وأجابت فى كلمة واحدة: نعم، القصر الملعون. بالتأكيد وحين ذاك كانت تجلس فتاة أخرى على الخزينة. كيف أصفها لحضرتك؟ وقاطعتنى مرة أخرى: أنا أعرف حقًا، لكن لا توجد فتاة أخرى معنا الآن. ولكن أنا آسف، لا أستطيع أن أعطيك أى معلومة؛ فأنا لا أعرف شيئًا. لكن تفضل بالسؤال هناك فى المكتب، انظر فى الجانب الآخر على الحائط الأبيض والباب الأسمر. من المحتمل أن يعرفوا مكان الآنسة الآن. فشكرتها ثم ذهبت تجاه الحائط الأبيض. على الباب مكتوب: ممنوع الطرق. ولم أطرق الباب، بل دخلت مباشرة، ولكن صاح صوت حاد: ألا تستطيع أن تطرق الباب؟!

وأردت أن أرد عليه بصوت غليظ، لكن رأيت الذى يقف أمامى. إنه قزم ولديه وجه متقلص خبيث. لا غرابة فى ذلك، فهو دائمًا متضايق؛ لأنه ما زال صغيرًا جدًّا. وكان يبدو وكأنه يذهب ويجىء، ودخلت. ولاحظت الآن رجلاً ثانيًا، وهو يقف على المنصة، ويكتب فى كتب ضخمة.

أهو كاتب حسابات أم لا؟ ونظر إلىَّ من خلال نظارته. ولوح القزم إلى كاتب الحسابات بلفتة غريبة، وحانت منى التفاتة، وادعى أنه يتصفح الورق، وتساءل كاتب الحسابات: ماذا تريد؟

أسأل عن الآنسة، لكن لم يبلغ الأمر هذا الحد. والتفت القزم بدفعة شديدة، وتأوه، وطال تأوهه، وشخَّص بصره إلىَّ، وابتسم بشماتة، وابتسم الكاتب بشماتة أيضًا. ما بهما؟ ما هذا؟ وما زال القزم يتفحصنى، وقال بسخرية: حضرتك، أى منها؟ كيف؟ وواصل تساؤلاته: هل كنت فى الحرب؟ نعم أقصد. ذهبت متطوعًا. وقاطعنى القزم بحركة اليد، كما لو أراد أن يقول دع هذا، نحن نعرف كل شىء. ونظر إلىَّ ثانية من أعلى إلى أسفل، وقال للمحاسب: هاهو. وضحك المحاسب بسخافة.

وبدأ كأنى غبى. وتساءلت بتوعد: من أنا؟

وأجاب القزم بأدب به نوع من الاستهزاء: حضرتك جندى.

واستفسرت الآنسة أيضًا؛ لأنها مغرمة بالجنود من الرجال، ولقد وقعت فى حب أحد الجنود من أول نظرة؛ فهى لم تكن تعرفه، فقط من الرأى. وقد اختفى هذا الجندى، فنظرت إليه بشدة. هل كتبت له باستمرار؟ ولكنه لم يجب، ولا بسطر واحد. وما زال المحاسب يضحك باستهزاء وشماتة. وقال القزم، وهو يضحك ضحكة قصيرة: فى الحرب تضيع الكثير من الرسائل. إن كل شىء مشوش فى رأسى الآن.

هل كتبت لى؟ حقًّا من النظرة الأولى؟ من أين عرفت اسمى، ومن أكون؟ – ربما يبدو من النظر؟ مستحيل، مستحيل. وقلت

يا سادتى: يبدو أنه هنا شيء من الخلط. وقال القزم كلمة واحدة: نادرًا! لكن هذا غير ممكن. كل شيء ممكن. لا، فهذا لا يمكن أن يصدق، لا يمكن أن يكون.

وقاطعنى القزم مرة أخرى: دقيقة واحدة، يا سيد. نحن هنا لسنا مكتب استعلامات، وعندنا أعمالنا.

أرجوك، حاول أن تقنع كاتب الحسابات أن يعطيك عنوان السيدة، وانحنى قليلاً، ثم سار من الباب، وتحققت منه، وتصفح المحاسب بطاقات الفهارس. وسألت بتلقائية: من كان هذا الرجل الصغير؟ مدير مجموعة الأقزام. آها!

أنا أنتظر العنوان، وأنتظر اسمها. ما اسمها؟ أولاليا؟ وابتسمت.

لا، لا أستطيع أن أصدق هذا حقًّا أننى أنا الذى كتبت إلىّ، من الممكن أن يكون جندى آخر هو الذى كتبت إليه، لكنى سوف أتابع هذا الموضوع، على الرغم من أننى متأكد من أن هناك خلطًا فى الموضوع، عندما كنا فى الربيع. كان واضحًا أن القزم من أصحاب الأكشاك، لكن لم يخطر على بالى أنها تفكر فى جندى. قبل هذا كله القزم إذا كان متخمًا بالمال. وسوف أحاول الوصول إلى الحقيقة؛ لأنه لو كان هذا صحيحًا، فهذا من الأحلام. وما زال المحاسب يتصفح الورق، وأنا أتفحص مكتبه. على الحائط إعلانات، سيرك وما شابه.

على سبيل المثال مروض حيوانات والنمور وألعاب نارية وساحر ودب أبيض ودب رمادى. فى العالم لا يصلح أى شىء من هذا لذراعى. وفجأة سمعت الكاتب يقول: هنا حصلنا عليه أخيرًا، هذا العنوان الملعون، ودونته معى. شكرًا جزيلاً. لا شكر على واجب.

ورفع نظارته وجلس، وبينما هو يكتب عنوان الآنسة على الورقة، قال: إنها آنسة شجاعة ومهذبة ولطيفة. أشفق عليها. لماذا؟

وابتسم بغرابة، وقال: أصبحت مريضة، ولذا تم فصلها من العمل. وتساءلت: مريضة؟ فضحك بسخافة، وبدا لى الأمر غير مريح. ماذا حل بها؟ وقال: يا إلهى! لا شىء إطلاقًا.

وانتهى من الورقة ورفع النظارة والتفت إلىَّ. وتوقف وحملق بعينيه المليئة بالدموع. أم هو قصير النظر؟ لا أنه خائف. لماذا؟ أنا لم أر شيئًا فى عينيه، وأعطانى الورقة ببطء، وتردد كما لو كان يخاف أن يعطينى الورقة. وقال: هنا. وصوته كان يرن، كما لو كان خارجًا من قبر. وأخذت الورقة وقرأت الكلمة الأولى: كانت الكلمة هى اسمها، (أنّا)

الفصل العاشر

"أنا" عروس الجندى

"يريد الله لكل إنسان شيئًا خاصًا به"، قالت هذا الممرضة البدينة، وبالتدريج أيقنت أنها كانت على حق؛ لأننى لم يَشُبْنى ذنب فيما حدث قبل ساعة؛ حيث كان يجب حدوثه. عندما أراجع نفسى الآن، وأتساءل: كيف هذا؟ تزغلل عيناياه فى الثلج، كما لو كنت مصابًا بالحمى.

وفى الليل كان يقف ملاك يمسك بذراعى في يده، وقد قدمت عظام يدى الضعيفة لهذا الوطن الذى فقد مجده. حقًّا، لقد كان النقيب على حق! أتقزز الآن من وطنى.

وبينما أعبر الميدان الخالى ببطء متجهًا إلى مدينة باريس، دقت ساعة البرج فى الكنيسة معلنة منتصف الليل. وعندما دخلت تنفس أبى الصعداء بشكل ملحوظ، وسأل متسرعًا بلا روية: أين كنت طول هذه الفترة يا بنى؟

لقد تملكنى القلق بالفعل وخشيت أن يكون قد أصابك مكروه، فيوميًا يتعرض كثير من الناس لحوادث سير. فهدأته قائلاً: لقد قابلت صديقًا لى مصادفة ودعانى للذهاب معه للسينما، وبعدها دعانى إلى كوب من البيرة. بالطبع، كان هذا كذبًا، ولكن أبى صدقنى، وقال:

أرجو أن تكون قد أكلت؛ لأن المطعم أغلق. ليس لدى شهية للطعام. فنظر إلىَّ متفحصًا، وقال: أنت لست مريضًا؟ اعتنى فقط بجرحك؛ لأنه ليس على ما يرام. ألم تصب بالحمى؟ لا تهمل نفسك! انتظر سوف أرى ما إذا كنت سأجد ما يؤكل، أى شيء خفيف، فالإنسان يجب أن يأكل جيدًا، بينما اتجه أبى إلى خلف البوفيه خلعت معطفى وجلست حيثما أجلس دائمًا بجانب الباب تمامًا.

كان لا يزال هناك عدد قليل من الزبائن وسائقين من المحطة المجاورة يلعبون النرد كالمعتاد، قلت فى نفسى: أعتقد أنك قد تناولت غداءك وعشاءك هنا لأسابيع كثيرة، وإن كانت مخفضة، ولكنها على حساب والدك.

يا له من رجل ماكر كذاب! إنه لمن المؤسف أن أفعل بأبى شيئًا أو أذكره بسوء، ليس من اللائق أن أتناول الطعام على حسابه دائمًا، ربما يكون اليوم هو آخر مرة أتناول فيها الطعام على حساب أبى. ربما تأتى الشرطة غدًا فى الصباح الباكر وتقبض علىَّ. هذا هراء! فمن أين ستعلم الشرطة؟ ومن الذى رأى أو يعلم شيئًا؟ لا أحد.

ولكنى أعرف جيدًا أن المخبرين مهرة ويقع تحت تصرفهم كل الأجهزة والوسائل المساعدة، ويقبضون على المشتبه فيهم يوميًا، ليلاً أو نهارًا.

وربما يكون قد رآنى شخصًا لا يشك فيه أحد مطلقًا، ومن الممكن أيضًا أن أحدهم كان يراقبنى، فدائمًا ما يكون هذا الزى العسكرى لافتًا للانتباه، وخاصة هذا الزى المرصَّع بثلاث نجوم فضية. يحضر لى أبى الجبن والخبز وكأسًا من النبيذ الفاخر. ولقد رمقته مندهشًا، نبيذ! فتبسم على غير عادته قائلاً: هذه المرة فقط؛ لأنى سعيد؛ لأنه لم يحدث لك سوء، ولكنه أيضًا عزاء لك، فقط لا تخاف! اليوم، عشية جاءتك رسالة، ولقد أحضرتها صاحبة الحانة لطفًا منها.

لقد اعتقدت حقًّا أنه لابد وأن يكون شيئًا مهمًا؛ لأنى لا أعرف أحدًا يمكن أن يكتب إلىّ، إنه لشىء مهم أيضًا، ولربما يكون محزنًا.

أقرأه الآن!

أجل، كن صبورًا! سأقرأه الآن. هذه الرسالة من أرملة النقيب كتبت إلىّ: " لتعيينك فى وظيفة خدمية، لم أستطع فعل شىء، ولن أستطيع". اقرأ الباقى بنفسك! قرأت الرسالة، ثم نحيتها جانبًا.

ثم قلت: حسنًا. وبدأت فى تناول الجبن. حملق فىَّ أبى متعجبًا. أتعنى حسنًا؟ كان هذا بالفعل آخر أمل لك، وبعدها تحدث الكارثة. ولكن هناك كوارث أفظع. فظيع وغير محتمل يا صغيرى، غير معقول! وكيف نبدأ الآن؟ لا تستطيع أن تأكل هنا على هذه المنضدة الحقيرة إلى أبد الآبدين. أنا شخصيًا لا أبالى شيئًا حيال ذلك،

فأنا أدفع بكل سرور، ولكن ذات يوم ستأتى النهاية حتمًا! لا تنس أنى رجل عجوز، كهل، ويمكن أن يلحقنى سوء فى أى يوم، وأنت لا زلت صغيرًا، ويجب أن تشرع فى عمل شىء!

فرنس، الحساب! نادى أحد السائقين. فذهب إليه والدى، وفكرت وأنا أتناول الجبن بهدوء، نعم يجب أن تفعل شيئًا، يبدو لى شىء غريب، أن أسكن فى حجرة خاصة فى مبنى حكومى، وتطل على حديقة جميلة، تمتد فيها سيقان اللبلاب حول الأشجار العتيقة، يا للسخرية! اشتريت بذلة زرقاء بالتقسيط، وكان يجب علىَّ أن أذهب ثلاث مرات إلى مكتب البريد. لا، لا لم أولد لأن أكون خادمًا مساعدًا! ولكن أريد أن أجد عملاً آخر. إن هذا الأمر لا يناسبنى مطلقًا. هل كان عندى حق فيما أفعل؟ بالتأكيد. هذا صحيح!

لا زلت أتذكر تمامًا، كيف كان كاتب الحسابات فظيعًا معى، عندما سألته:

ماذا تفعل الآن الآنسة (أنًّا)؟

فهز كتفيه قائلاً: الله أعلم.

نحن نتكلم كثيرًا عن الآلهة، ولكن لا أحد يؤمن بوجود الله ولا يفكر فيه. منذ أربع ساعات وأنا أفكر وأجزم أنه من المستحيل أن تكون أنت التى كتبت له الرسالة. من أين عرفت من أكون؟ ربما

تكون قد تتبعتنى فى سرية، واستعلمت من مكتب البريد الذى يقع فى الثكنات عنى حتى تعرفت على اسمى.

لا، هذا غير معقول، هذا محال. واليوم مساء عندما كنت عند كاتب الحسابات، اعتقدت أنك قد عرفت الآن أين تقطن؛ فهى تقطن فى منطقة بعيدة جدًّا.

لو ذهبت إليها ماشيًا سوف تحتاج إلى ساعة ونصف، ولكنك سوف توفر بذلك نقود الترام، قد يعتم الجو بالفعل، ولكن المساء لم يحل بعد. وعلى عجلة من أمرى، ذهبت بمحاذاة الأكشاك.

يوجد الملايين ممن يطلق عليهم اسم (أنَّا) فى العالم، وكل واحدة مختلفة عن الأخرى، ولا واحدة منهن هى التى تبحث عنها، شقراء أم خمرية أم سمراء. وربما توجد أيضًا (أنَّا) وردية اللون، بدينة أم نحيفة أم قصيرة، عجوز أم شابة؟ كم من النساء تعرفت عليهن بالفعل؟ أنا أعتقد أنهما اثنتان، إذا صدق حدسى. لا أعرف شيئًا حقًّا عن بعضهن، وماذا يدعى اللاتى عرفتهم لليلة واحدة. كيف حال المدعوتين (أنَّا) اللتين تعرفت عليهما؟ دعنى وشأنى! وبالنسبة لى سواء، ما إذا كانتا على قيد الحياة أم لا، الأمر بالنسبة لى سواء. عندئذ سوف اهتم بـــ(أنَّا) الثالثة. لماذا؟ ماذا يعجبك فيها؟ ربما لأننى فعلت ذات مرة من أجلها شىء كنت لا أحب أن أفعله حقًّا، لقد التهمت ذات مرة قطعتين من الآيس كريم، وأنت لا تحبه.

لا تهكم عليَّ!

لا حاجة للمرء أن يخجل عندما يشعر بالسعادة! الحب ليس عارًا! ذهبت بمحاذاة الشارع مسرعًا. وأصبحت المدينة أكثر سكونًا وبردًا. وفجأة، خطرت لى فكرة لا أعرف من أين أتت، إنه لشىء مؤلم، أن أقف مسلوب الإرادة. لم أرَ قط مثل هذا الجمال.

كانت هذه أنشودة، ولكنى لم أستطع فهم كلماتها. من هذا الذى يغنى فى ليلتى؟ هل هى فتاتى؟ اصمت! تقول: يجب أن تقول لى شيئًا الآن. تقول :انصت! قد رأيتك فيما مضى أمام قصرنا الملعون، وقد تعرفت عليك. تعرفتِ عليَّ؟ هل تذكر ذلك، أنا وأنت عندما تعرفنا على بعض؟ تعرفنا على بعض؟ سابقًا؟ نعم سابقًا. كنت آمل دائمًا لو تعود إلىَّ مرة ثانية، ولكنك قد اشتريت لنفسك فقط تذكرة دخول، ولم تتذكر فتاتك قط. من أنتِ؟

فيما بعد، فيما بعد. وقتها لم أقل بالطبع ولا كلمة، ولكن ارسمى خطوطك؛ لأن كل إنسان لديه كرامته و كبرياؤه؟

لم تقل ولا كلمة، ولا كلمة، فقط ذهبت، ولقد انتظرتك بالفعل طويلاً. – انتظرتنى؟

نظرت حولى، فإذا الرياح تعصف والثلوج تتراكم وتترنح. أقبل، فقط أقبل! فأنت لست بعيدًا أبدًا. أترى هذا المنزل ذا اللون الأصفر أمامك؟ هناك أقطن أنا، أقطن هناك.

نعم، هناك تقطنين. لقد أوشكت على الوصول. مكتوب على قصاصة الورق، أنها فى الطابق الثالث. ولكن خلف أى نافذة؟ لا زالت لا أعلم.

وأمام بوابة المنزل قابلت حارسة المنزل، وكانت تنظف الأرضية فحييتها وسألتها، هل تسكن الآنسة "أنًا" هنا؟ ولقد حملقت فىَّ ولم تقل شيئًا. وفجأة صرخت، بحق مريم وعيسى، أهو أنت؟! الآن تعرفت عليك، لقد اعتقدت أنك قد مت! ماذا؟ أنا؟ ميت؟!

لقد اعتقدت أنك ربما لم تعد من الحرب. قالت هذا، ورفعت قامتها من الأرض. لقد انتظرت الآنسة المسكينة منك خطابًا لمدة طويلة. فحملقت فيها قائلاً: هل تعرفيننى؟ عندئذ تفحصتنى من أعلى إلى أسفل، ثم ابتسمت فى دهاء وقالت:لا، لا، لم أرد أن أقول شيئًا.

من أنا إذًا؟

لا يعرف هذا إلا الله، وعلى كل الأحوال جميل منك أنك قد جئت بالفعل. ثم تلعثمت فى الكلام. وسكتُ، فقد أصبح عقلى مشوشًا، فنظرت إلى سلالم المنزل حائرًا، وللحظة بدا لى كما لو كنت قد رأيت هذه السلالم فى حلم يقظتى. حقًا فأنت تعرف كل شىء هنا! فيمينًا تتجه السلالم إلى أعلى، وفى اليسار هناك فى الركن تسكن حارسة المنزل العجوز. وهناك فوق يوجد ثلاثة ممرات مظلمة، وبها ثلاثة أبواب فى كل طابق.

إن هذا يبدو لى معروفًا. فأين "أنًا" الآن؟

لم تعد الآنسة تسكن هنا الآن؟ أسمع الآن صوت حارسة المنزل وهى تقول: إنها قد رحلت منذ نصف عام. إلى أين؟

فتبسمت مرة أخرى، قائلة اصعد فقط إلى الطابق الثالث! وسوف تخبرك السيدة التى كانت تسكن عندها الآنسة "أنًا"، أين يمكنك أن تزورها؟ إن الآنسة المسكينة سوف تسعد كثيرًا عندما تعرف أنك ما زلت حيًا، خصوصًا بعد كل هذه التعاسة التى تحملتها وصبرت عليها.

تعاسة؟

نعم، فلم تكن الأمور تسير على ما يرام. تساءلت: ما الذى لم يكن على ما يرام؟ عندئذ ابتسمت، ثم ضحكت ضحكة خفية. أريد أن أسمع.

تحدثى بما تعرفين إذًا! فأنا لا أدرى شيئًا.

ثم نظرت إلىَّ بوقاحة، وعندئذ بدأت فى الضحك.

طبعًا، طبعًا، فإن الرجال دائمًا غير مذنبين، وليس لديهم معرفة، إنهم حتى لا يستطيعوا العد إلى ثلاثة، كذلك أيضًا زوجى العزيز.

فاستوقفتها قائلاً: أنصتى إلىَّ، ما هذه السخافات التى تنطقين بها؟!عندئذ هزت منكبيها، وقالت: فكر ثانية، يا سيدى الشاب! فإنه يمكنك أن تخمن. لا، لا أستطيع أن أخمن شيئًا.

لم أقل ولا كلمة أكثر من ذلك، ولا أى كلمة، وسوف ألتزم ذلك! فأنا لا أريد أن أفعل شيئًا تجاه هذا الموضوع! عمت مساء!

اذهب إليها وسوف تنتعش ذاكرتك بالفعل.

ولقد تركتنى أقف، والتفتت مرة أخرى إلى الأرض، وأخذت تنظفها جيدًا وبشدة، ثم نظرت إليها لبرهة، وذهبت بعدها إلى الطابق الثالث. إلى السيدة، التى كانت تسكن عندها فتاتى.

ولكن إلى أين ذهبت إذًا؟

إن حارسة المنزل هذه وحش خشن غير أليف. ولله الحمد، فإنه يوجد أنواع أخرى أفضل منها. وعمومًا يوجد نوعان من البشر. ولكن فقط محبوبة واحدة. وفى الحقيقة تبدو سلالم المنزل مألوفة لى. انتظر! وسوف تعرف كل شيء. فأنا الآن فى الطابق الثالث. وطرقت على الباب الثانى لما هو الوصف على قصاصة الورق . وفتحت "سيولكن.أب" بحرص، لم تبدُ لى من أول وهلة عجوزًا. ذات شعر رمادى، ولكن شعرها حالك السواد كالقار وترتدى برنس حمام قديمًا بعض الشيء، أخذت تنظر إلىَّ فى شك، ولاحظت أنها ربما

تغلق بابها لو لم أكنِ أرتدى بذلة عسكرية؛ لأن الناس يثقون فى البذلة العسكرية.

ثم قالت، وهى تتلعثم: ماذا تريد؟

معذرة يا سيدتى أننى أزعجتك فى هذا الوقت المتأخر من الليل، ولكنى أريد بالتحديد أن أستعلم عن شىء. أنا أبحث عن الآنسة "أنًّا"، ثم أخذت تنظر إلىَّ بشك.

عمن تبحث يا سيدى؟

انحنيت لها. معذرة يا سيدتى، فإن حارسة المنزل أرسلتنى إليك. وتحدثت عن أشياء كثيرة مشوشة، حتى إننى لم أعد أعرف بالفعل من أكون.

أتسمحين لى أن أسأل، فقاطعتنى فى الكلام متسائلة: ما علاقتك بالآنسة "أنًّا" يا سيدى؟ أنا أعنى هل أنت قريب لها؟

لقد اعتقدت حارسة المنزل أننى ربما أكون خطيب الآنسة، ولكن،

ولكن ...

قاطعتنى وهى ساخطة مغتاظة قائلة: إن هذه الإنسانة لا تحتمل؛ فهى تثرثر كثيرًا بأشياء غير منطقية، فهى تتصادم مع كل الناس، وأعتقد أنها غير طبيعية. أنت لا يمكن أن تكون خطيب

الآنسة؛ لأن خطيبها كان قائدًا عسكريًّا، ولكن بالنسبة لهذه الإنسانية المعتوهة يستوى عندها كل من يرتدى الزى العسكرى، علاوة على ذلك فإنها يمكن أن تكون رأت خطيب الآنسة مرة واحدة فقط؛ لأنه لم يأت إلى هنا إلا مرة واحدة عابرة.

للأسف، فإن الحظ لا يدوم إلا لوقت قصير.

ثم صمتت.

أهكذا، لا أعتقد أنك الذى كتبت له رسائلها، كان جنديًّا آخر. فأنا أقر بصفة شخصية أن هذا بالنسبة لى سواء الآن، إذا ما كان أنا أو أحد غيرى؛ لأنى أعرف بالفعل أن الشىء المهم، هو أنى هنا. فسألتنى العجوز باهتمام: أكنت أيضًا فى الحرب يا سيدى؟

نعم، وهذا يعنى أننى متطوع. والآن حركت يدها كما فعل القزم من قبل. نعم، نحن نعرف هذا، ولكن دعنا من هذا الآن، نحن نتكلم فيما بيننا.

ثم دعتنى العجوز إلى مسكنها؛ لأنه ليس من الذوق أن تتحدث مع أحد الأبطال على سلالم المنزل الباردة.

ثم قادتنى إلى حجرتها، وقالت: معذرة سيدى أن أدعوك إلى مخدعى، ولكن هذه هى الغرفة الوحيدة التى أقوم بتدفئتها. على الرغم من أننا نملك كل شىء هنا، نعيش فى رغد، قالتها باستهزاء، ولكنى لم أقل شيئًا حيال ذلك. أجل، انتصرنا.

إذا كنا حقًّا قد حصدنا ثمار نصرنا، فهذا شيء متيقن، ولا أؤمن به ولا أعتقد ذلك. أخشى ألا أعيش حتى أنعم بهذا النصر؛ فأنا فعلاً طاعنة فى السن، عجوز.

ولكن سيدتى!

حذرتنى بإشارة من سبابتها.

كنت بالنسبة لى أحدهم!

أنا أقول فقط الحقيقة، أتظن أنى أكذب. هذا بالتأكيد يستحق الثناء، لاسيما أنه لم يكن هناك مغامرة خطيرة. انظر يا سيدى، فقد كنت أنا كل هذا قديمًا! وأشارت إلى حوائطها الأربعة، والتى كانت ممتلئة بالصور الفوتوغرافية. فتعرفت فى صورة غير واضحة على إحدى الشابات فى رداء أبيض. أكانت تسكن قديمًا فى الجهة المقابلة لى؟ ثم أخذت صورة من على الحائط، صورتى أنا وأخى.

كان فنان (بهلوان ومصارع وراقص).

الرقص واللعب بالطوق والرمى بالسهام.

لقد فقدت أخى العزيز، لقد ظل فى الحرب العظيمة. نعم. نعم، كنا اثنين، كنا ذات مرة نقدم أعظم فقرات السيرك، كان لنا زوار كثيرون جدًّا. لقد كنت آنذاك طفلة صغيرة. طفلة؟

هذا مبالغة بعض الشىء.

لا، بمثل هذا الحجم كنت بالتأكيد فى الثامنة عشرة، وبسرعة حسبت مرة أخرى كم يجب أن يكون عمر هذه الطفلة الآن، ثم تنهدت قائلة: كان هناك الوقت الكافى! ولكن اليوم؟ ماذا تفعل حقًا هذه الفنانة؟ كل هذا خداع! فإنه كان يكفى فقط الوجه الجميل! بالفعل لقد تحدثت عن نفسى، وأتحدث عن اهتماماتى الخاصة، ولكن دعنا الآن نتحدث عن الهدف من زيارة سيادتكم! كنت تريد أن تستعلم عن الآنسة المسكينة (أنّا)؟ اغفر لى عدم تحفظى يا سيدى، ولكنى أريد أن أعرف طبعًا، ولأسباب مختلفة لماذا؟ هذا يعنى: كيف ذلك؟ بأى حق تهتم بهذا الشىء؟ هل أنت قريب لها؟

أنا؟ ماذا ينبغى أن أقول الآن؟

على أى حال يجب أن أكون تابعًا لها بأى صورة من الصور، وإلا لكنت الآن غير موجود هنا – ولكن قريب؟ أريد أن أضحك، ولكن الطفلة العجوز تراقبنى بحدة، كأنها ترصدنى. وبدون أن ترمش أهداب عينيها، أجبت: أخوها. أنا أخوها؟! نعم غير ممكن!

ولماذا؟

لم تجب بأى شىء أمام هذه المفاجأة القوية. ما زلنا صامتين. وابتدأت أخيرًا الكلام، قائلة: أنت أخوها، ولم تكن تعتنى بأختك؟! لم يكن لدى وقت. هذا هراء.

الإنسان يأتى أولاً، ولابد أن يكون الاهتمام أولاً بالإنسان. معقول هذا الكلام، بل مؤكد! وإلا إلى أين يمكن أن يكون مصيرنا؟

نعم، إلى أين؟

هكذا سألت نفسى. الضباب تغير لونه إلى اللون الأصفر، وأصبح كثيفًا ومعتمًا، لدرجة أن يغمرنى ويغمر روحى. فتنمو شجرة، شجرة الموت على حافة إحدى الهضاب العالية. تتسع الهوة من حولنا، وفى الأسفل تسمع خرير الماء. لقد أسرنا خمسة أشخاص، والآن نعلقهم على هذه الشجرة. نبدأ أولاً بالأكبر سنًا ثم بالأصغر؛ لأننا نحترم السن. نحن نقوم بعملية تنظيف وتطهير! ونزع النقيب إحدى النجوم، نجمة فضية. أيها النقيب، أيها النقيب، ماذا تكتب فى رسالتك؟ لم نعد جنودًا، ولكننا لصوص أشقياء، وقتلة أنذال؛ فنحن لا نحارب بشرف بل ضد الأطفال والنساء والجرحى.

إن هذا الشىء عجيب، فأنا أعرف كل كلمة، ولن أنساها. والغربان تحلق فوقنا مرة أخرى، وانصرف النقيب بعيدًا عنا. وأخذ ينظر يمينًا ويسارًا. والآن هو يجلس على أحد الأحجار، ويرسم بسيفه على الرمل. ولا يريد أن يرانى. ماذا يرسم هناك؟ خطوطًا؟ وبينما أنا أتساءل يصبح الضباب أقل كثافة والعتمة تصبح بيضاء، وتتضح لى أنه دائمًا عندما يخطر على بالى شىء، يحدث شىء رزيل، ومرة ثانية تخطر على بالى هى أيضًا، أختى الحبيبة، كان

يجب أن أعود إليك. أسمع صوت المرأة تقول: لو كان سيدى الأخ قد أتى قبل ذلك، كان من الممكن أن يختلف كل شيء، كل هذه التعاسة.
- تعاسة؟

يؤسفنى جدًّا أن يكون مقدرًا علَىَّ هذا، فكم كنت أود مشاركتها سوء الحظ هذا، ولكن هذا القدر المحتم لا يمكن تغيره - بعبارة قصيرة: إنه لشيء سيئ، ومع هذا فإنه يقال فى بعض كلمات. فأختك المسكينة كانت لديها وظيفة جيدة جدًّا.

فى القصر الملعون؟ - نعم، حقًّا ولكن فى يوم جميل تم هدم هذا القصر من أجل ساحة السيارات؟ ساحة السيارات؟ لكن لا! لقد تم الاستغناء عنها فورًا ودون إنذار؛ لأنها كانت تنتظر شيئًا صغيرًا، طفلاً.

- طفل؟!

نعم، وفى مثل هذه الأحوال المباركة، لم يمكنها أن تؤدى واجبها الضرورى فى الوقت المناسب، كانت تضطر أن تأخذ راحة من حين لآخر، ولهذا السبب طردتها الشركة. كان يمكن للشركة أن تمنحها بعض النقود لتساعدها فى هذا، ولكن يجب أن تعرف أن هذه شركة كبيرة جدًّا، تملك الكثير ربما نصف الشوارع والطرق وما فيها من أشياء قيمة، ويعمل فيها أناس كثيرون جدًّا. وكانت تستطيع أن تشترى كل شيء له قيمة، حتى فى وقت الأزمة الحالية، ولكن هؤلاء

الناس لا يهتمون بالشخص الوحيد؛ فهم يوفرون ويهدمون. وإذا ما أصيب أحد، فماذا يهمهم؟ فلا يزال هناك عدد كاف، تعنى ما يكفي لأن يصاب – وفوق ذلك كان والد الطفل أيضًا جنديًّا، مدافعًا شجاعًا عن الوطن، كما تقولون، متطوعًا!

لقد كتبت أختك المسكينة دون انقطاع – كيف هذا؟ ولم تحصل قط على إجابة. وذات يوم أعادوا لها كل هذه الخطابات دون أن تفتح ملحقة بمكتوب حكومي: المرسل إليه أصابه حادث مميت في أثناء التدريبات العسكرية. وكانت بالطبع عندئذ يائسة وحزينة جدًّا. ولم يكن لديها شيء أو أية نقود أو حتى وظيفة – نعم، ولقد فعلت للأسف حماقة دون تفكير. وقد أعطت شخصًا دنيئًا مجهولاً طفلها، واتضحت الأشياء، والآن، الآن هي في الإصلاحية.

_ في الإصلاحية؟

– تخيل، فقد حكم عليها بعامين!

– عامان؟

– إن هذا لشيء مفزع.

– التزمنا الصمت.

والآن خطر على بالي القزم؛ فهو قائد الأقزام – وهو أيضًا بالتأكيد شريك في تمويل هذه الشركة، وإلا لم يكن ليتصرف بمثل

هذه العجرفة – فلديه وجه متقلص شرير، لا عجب فهو يغضب دائمًا، لكونه صغيرًا. وغضبه أيضًا يتركه ينعكس بصورة سيئة على الآخرين.

فهو يطرد ويهدم بدون مرعاة. لو يضربه المرء على جمجمته– هذا القزم؟

هل تريد أن تضرب معوقًا؟ ولِمَ لا؟

ربما يكون كل شيء اختلف، لو أن السيد الأخ قد أتى مبكرًا. عاودت العجوز ثرثرتها: أنا أقول دائمًا: إن أشياء كثيرة فى العالم يمكن أن تتحسن لو اهتم الرجال أكثر بالنساء، بدلاً من أن يهتموا فقط بأنفسهم. ولقد خلق الله الرحيم آدم وحواء، ولم يخلق فرقًا ومجموعات.

ثم سألت: أين هى الآن؟

فى النهاية الأخرى للعالم، وإلا كنت زرت المسكينة منذ أمد طويل؛ فكل ثلاثة أشهر أخصها بيوم للزيارة – على كل حال، أكتب لها حالاً رسالة ود ومحبة؟ نعم سوف أكتب لها. وإذا بى أنهض، وهى تصطحبنى إلى خارج الغرفة. وهنا تقرأ فى الصحف، فى كل عدد عن تراجع المواليد، وحماية حياة رفقاء الشعب. وأيضًا عن موت الشعب المهدد، ولكن وفى الوقت نفسه تلقى أيضًا الفتاة

المسكينة فى الشارع عندما تصبح أمًا. يجب أن يتدخل أولو الأمر فى هذا الشأن.

لابد أن أبتسم. لا، لا تتدخلوا؟

أيها الرب، أين تعيش؟ على سطح القمر؟

لا، لم تعد موجودًا. عندنا هنا على الأرض يمكن أن تحصل الأم التى بدون وظيفة ولديها طفل على معاش صغير، ولا يمكن للأم ولا للطفل أن يعيشا بهذا الراتب، وماذا تفعل على فرض أنه ليس لديها من يكفلها هى وطفلها. اسمع منى هذا لأول مرة، حتى ولو كنت تتطلع إلىَّ بذهول.

لا، قلت هذا وتذكرت أبى. فهو يعرج. ومعاشى أكثر عرجًا، والآن نقف على سلالم المنزل. وأقول بهدوء: إن قادتنا أكبر مخادعين. قاطعتنى فى الكلام قائلة: صه! وهى تنظر حولها غاضبة، بحق الله لا تتكلم بصوت عال! فيجب أن تأخذ حذرك حتى ولو كنت ترتدى الزى العسكرى. نعم، ليس له قيمة حقيقية.

هذا ممكن.

احيا فى سلام، واعتن فقط بأختك!

– تصبحين على خير، سيدتى!

ثم نزلت سلالم المنزل درجة درجة بهدوء، بهدوء تام، حتى إنه لم يلاحظنى أحد، ولكن فى داخلى كان يكمن غضبًا مفزعًا وكرهًا مهولاً. والآن أريد أن أنظف نفسى، أن أنقيها إلى أقصى درجة. أريد الآن أيضًا أن أكون طائرًا ومقاتلاً قويًّا، وأشن هجومًا على قادتنا.

لو يجتمعون جميعًا بجانب بعضهم بعضًا، ويقسمون هذه الأرض الصغيرة التى أخذتها لهم.

وتسود تلك الحكومة المأسوف عليها أنماطًا غير قادرة، وعاجزة عن دفع الحياة بشكل مناسب، ولكنهم يدعون المعرفة، ويحسبون أنهم يمثلون دائمًا ما يسمى برأى العدل.

موقف مضحك، كيف؟

أريد أن أثق فيكم.

من الذى حصل على خيرات البلد التى حاربنها وحصلنا عليها؟ من حصل على الخبز والزبد والمعادن الخام؟ من؟!

أنا لا أرى إلا الإصلاحية (السجون). أنتم تتحدثون دائمًا عن برنامج تاريخى عالمى، ولم يكن لديكم أية برامج تاريخية! لا تجعلونا حمقى عندما تريدون أن تسرقوا.

ثم ذهبت مسرعًا فى الظلام الدامس مرة أخرى إلى الميناء، إلى إمبراطورية الأقزام؛ لأنى أريد أن أخاطب الشركة وأعرف لماذا

طردوا الفتاة المسكينة؟ حقًا إن هذا شيء لا يخصني مباشرة، ولكن المرء لا يمكنه أن يرضى عن كل شيء! ومن يقبل هذا كله ما هو إلا وغدُ، وأنا لست وغدًا، فقلبى بحر أسود تحت سماء موحشة، يمتلئ بالسحب الغاضبة.

احترس ، احترس!

فأنت ترتدى الزى العسكرى، وهذا يكلفك حياتك. لا تبدِ ملاحظات على أى شيء، ضع على بحرك وسمائك غطاء! تظاهر بهذا حتى تهدأ من روعك! تأنَ!

مررتِ على ساحة السيارات؛ حيث يدور آخر ضيف فى الدائرة. أتمنى لكم وقتًا ممتعًا! وهناك يقع الجدار الأبيض ذو الباب الأسود.

الباب مغلق الآن. وسألت صَبيًا يتأرجح: متى يمكن للشخص أن يأتى هنا؟ فى الثامنة صباحًا. سوف أعود ثانية فى صباح الغد.

وعدت من الدرب نفسه ثانية فى بطء؛ لأنه لم يعد لدى اليوم شيء أفقده. معظم الأكشاك قد أغلقت. آكلى السكاكين وملتهمى النار لا يأكلون الآن شيئًا. السيدة ذات اللحية والرجل ذو الرأس التى تشبه الأسد وأسمن سيدة فى العالم يرقدون فى فراشهم، ويحلمون بالضباب الأزرق.

هناك قرد صغير يرتعد من البرد يريد أن يرتعد مع قرد آخر، ولكن لا يوجد قرد آخر لكى يرتعدا معًا. الخيل موجودة فى الحلبة تقف بالفعل فى الحظيرة، كشك التنشين يغلق الآن.

وأصبحت الأيام أقصر. ويسارًا يسقط الضوء من حانة البيرة على الثلوج، وهى تظل دائمًا مفتوحة، وابتعت من هناك كأسًا من البيرة. إنه لشىء رائع عندما يستطيع المرء أن يدخن مرة ثانية ليشعر بالحياة. ولقد وضعت يدى على الجرس، ولكن أوقفتها فى آخر لحظة؛ لأننى لمحت فى داخل الحانة شخصًا أعرفه.

إنه الرجل الذى أعطانى عنوان شقيقتى. إنه هو، المحاسب. لقد تناول الآن سمك الرنجة. ما أطعمها، أو هل يبدو لى هذا؛ لأنه كان قصير النظر؟ بالطبع هو يعرف جيدًا لماذا فقدت وظيفتها، نعم هو يعرف هذا جيدًا. ولقد قال أيضًا: إن الآنسة مريضة. ولقد سألته: ماذا ألم بها؟ قال: لا شىء بصفة خاصة.

لا شىء بصفة خاصة؟ انتظر فقط! إنه ما زال يأكل.

ورأيت أنه يرتدى معطفًا؛ لذا لا يشعر بالبرد، ودار فى رأسى الآن، إنك ينبغى أن تشعر بالبرد، ولا ينبغى عليك أيضًا أن تتناول رنجة. ولقد ألقى نظرة على الباب الزجاجى ثم رج شيئًا، وسقطت قطعة من شوكته. هل عرفنى؟ ثم حول نظره مرة ثانية. بالتأكيد، إنه يعرف من أنا، على الرغم من قصر نظره، وترك الرنجة الآن.

هل فقدت شهيتك؟

لقد قام من على المنضدة، ولكنه ما زال فى الحانة، على الرغم من أنه لم يبتع شيئًا. وينظر خلسة من وقت إلى آخر إلى الباب؛ ليرى هل ما زلت موجودًا أم لا. نعم، أنا ما زلت فى الخارج، ولم أدخل. ولكن سأنتظر حتى تهدأ الحانة؛ لأننى أريد أن أسألك بينى وبينك فقط: لماذا طردتم الآنسة فى سرية؟ لأننى من الممكن أن أضربك.

فقط انتظر، سوف أجعلك تخرج تركت الباب، وذهبت خطوتين يمينًا. والآن سيعتقد أننى غير موجود. استندت إلى الحائط، وفتح الباب، وخرج سكران يتغنى ويترنح من السكر. أخيرًا أتى الجل الذى أنتظره . وظل واقفًا عند الباب فى شك، ونظر حوله. بالتأكيد أنت تعرف جيدًا أنك فعلت شيئًا مشينًا. إنه لا يستطيع أن يرانى؛ لأننى أقف فى ظل إحدى الأرجوحات الضخمة. وفجأة انطلق ناحية اليسار، ولقد تعقبته ثم انعطف فى شارع جانبى لا أعرفه. وعبرنا بعد ذلك جسرين صغيرين، وهنا أيضًا قناة. ونحن الآن خلف البيوت، وهنا مخازن كثيرة، وسار الآن بامتداد أحد الأسوار.
ـ امش، فسوف ألحق بك!

وهبت بعد ذلك رياح باردة. وناديت عليه: أيها المحاسب، دقيقة من فضلك!

فنظر حوله ورآنى، وبدا عليه الذعر، ثم بدأ يسرع بالفعل. وأنا أسرع وراءه. أنا الآن خلفك تمامًا.

فقلت: لماذا تسرع؟ يمكننى أيضًا أن أسرع، ووقفت أمامه بخطوتين وسددت عليه الطريق. توقف، ثم سألنى: ماذا تريد منى؟ ونظر حوله يبحث عن أحد، ولكن لا يوجد أحد سوانا، نحن الاثنان فقط، ثم قلت: أريد أن أسألك عن شيء يخص الشركة.

قاطعنى قائلاً: تعالى إلى المكتب غدًا، وحاول أن يبدو قويًا، وضحكت قائلاً: غدًا؟ ومن يعرف أنى سأعيش إلى الغد!

فقال خائفًا: نأمل ذلك.

ثم قلت له بصرامة: أريد أن أحدثك عن الآنسة "أنًا"، لقد قلت لى اليوم بعد الظهر إن الآنسة "أنّا" مريضة للأسف.

للأسف! للأسف!

هل تعرف ماذا ألمّ بها؟

وحملق فىّ للحظة، ثم مرر يده على عينه ونظر إلى السماء. هل تبحث عن المساعدة؟ ابحث، فأنت تحت رحمتى! وفجأة اهتز، وخفض صوته قائلاً: معذرة، هل أنت حقيقة السيد والدها؟

لا! لا! نظر إلىّ متسائلاً فى هدوء، وقد أصبح وقحًا.

ما شأنك إذًا بهذه الآنسة؟

-إنها تخصنى، ويكفى هذا.

-دعنى أمضى!

-انتظر، ليس بعد.

-أتجد أنه شيء جيد أنكم تطردون الآنسة من العمل؟

- أنا لا أعرف، ماذا تريد منى؟

- أود أن أسمع الإجابة.

معذرة، معذرة! إن الآنسة (أنَّا) لم تستطع أن تؤدى عملها بشكل جيد، وبالطبع كان يجب علينا أن نطردها. ولا تنس يا سيدى، أننا مؤسسة كبيرة، ولدينا أيضًا مسئولية كبيرة.

لمن؟

نحن لدينا حوالى أربعة وعشرون شخصًا ما بين مستخدمين وفنيين، وما شابه ذلك، ونحن مسئولون عنهم ، وفى مثل هذه العلاقة لا يمكن لأحد أن يطلب منا أن نعتنى به.

ولِمَ لا؟

لأن الفرد الواحد ليس له دور مهم.

رمقته بعينى، أى دور؟

لقد قلت أنا مثل هذا الكلام بالفعل. يا للغباء! يا للغباء! كم كنت كاذبًا.

وواصل كلامه قائلاً: يجب نحقق أرباحًا دائمًا. إن المنافسة شديدة فى العمل. هى حرب أيضًا يا سيدى، ومن المعروف أنه لا يمكن أن تنتصر فى هذه الحرب بهذه المعاملة اللينة اللطيفة، وهذا ينبغى أن يكون بديهيًا ومعروفًا لك حقًا.

بالمعاملة اللطيفة؟

لقد كانت هذه بالفعل كلماتى. وعندما صاح النقيب: لا ينبغى للجندى أن يكون مجرمًا. ونظر إلىَّ المحاسب مستهزئًا للحظة، وضحك، أو بدا هكذا؟ وواصل الحديث بعد ذلك، وأنا أصغى إلى نفسى فقط. كل الأقوال الفارغة والعبارات الطنانة الجوفاء والوقاحة والتكبر والثرثرة تقززت من نفسى.

فأنا أشمئز من شبح الماضى. نعم، إن النقيب كان لديه حق! أنا أكره الحياة المريحة، وأهيم بالحياة الجادة. كم كنت كاذبًا.

بالتأكيد، كاذب جبان؛ لأنها بالفعل حياة مريحة؛ لأن الأعمال التى قمت بها من أجل الوطن، قد انكشفت ولم يعد لها مصداقية، كما لو كان هذا معطفًا أبيض خالى من الدنس.

إن أى عمل إجرامى أحمق جريمة، سواء كان لخدمة الوطن، أم فى أى شركة أخرى، الجريمة ستبقى جريمة، وتنهار كل مؤسسة أمام القاضى العادل إلى لا شىء.

ويتحمل الفرد المسئولية بالنسبة للخير والشر، ولن يمنحك الوطن الجنة أو يمنع عنك الجحيم.

أى وحل كاذب مريح كنت أعتقد فيه وأعيش فى وهمه!

كنت أقف فى الطابور، ولم أهتم بدخول أختى الإصلاحية.

يا للعار، يا للشيطان، من أى أنواع الماشية كنت أنا؟!

لا، لم أكن إنسانًا!

..

فاليوم، لو واجهت نفسى بما كنت عليه فى الماضى، أعتقد أنه من الممكن أن أنتحر. هذا الأبله الحسير أمامى، لا تقل لى: إن الحرب هى أصل كل الأشياء، ثم قاطعته بشدة قائلاً: هدوء!

–هل تعرف ماذا حدث للآنسة؟

– ليس عندى أى أخبار.

– لقد سجنت يا سيدى.

– سجنت؟ لماذا؟

لأنها فقدت وظيفتها مؤخرًا. هذا يؤسفنى

لقد نطق بكلمة الأسف هذه، ولكن بدا عليه الفرح، من أنها تعانى، وكان سعيدًا، وابتسم فى نفسه. واستدار كما لو كان قد نسينى كليًّا، ولكننى ما زلت هنا ، ولن أتركك تغيب عن عينى.

وهز منكبيه قائلاً: يا عزيزى، أنت تعرف أن الأمر لا يتعلق للأسف بشخص واحد.

ابتسمت، ويجب أن أذكر أنك مخلوق دنىء، مخلوق كاذب.

وتعجب، لأننى كنت هادئًا جدًّا.

وقلت له: يا لك من كلب!

وحملق فىَّ، كما لو كان فهم خطأ، ثم قال بعد ذلك: من فضلك! هل تسمح؟

لم أسمح لك بشىء؛ لأنك كلب، بالتأكيد كلب أحمق لم يفكر أنه من الممكن أن يفقد فى يوم جميل هو أيضًا منصبه، مثلما فقدت الآنسة وظيفتها؛ لأن الموضوع للأسف لا يتعلق بالفرد الواحد!

ونظر إلىَّ بكرهٍ شديد.

ثم قال: أيها الشاب، لا تقارننى بأى عامل، فأنا كبير المحاسبين منذ ستة وثلاثين عامًا فى الشركة نفسها.

ولذلك لم تعد هكذا!

آه، أيها الشاب!

وضحك الآن خفية مستهزئًا.

ولا تنس أيضًا أننى فى هذه الوظيفة لا يمكن أن تحدث لى مثل هذه الظروف، وضحك مستهزئًا؛ فأمسكت بياقته، وضربته بقبضة يدى على وجهه، ثم سقطت نظارته على الأرض.

ثم صرخ قائلاً: أتضربنى؟! أتضرب رجلاً عجوزًا؟!

النجدة، النجدة!

فانقضضت عليه وأمسكت بفمه فأنشب أظافره فى معطفى، وهويت إليه بضربتين، فترنح. ولاحت لى القناة.

وهى موجودة هنا دائمًا؟

وعض يدى. انتظر أيها النذل! سوف أرمى بك فى القناة

اذهب! ...

لم أتلفت حولى بعد ذلك.

وهبت الرياح وتراقصت الثلوج، وذهبت إلى مدينة باريس، وقبلها أخذت نظارته ورميتها إليه؛ لكى يرى الوحل جيدًا.

والآن سوف يرى أن كل فرد لا يلعب دورًا.

أشعر أننى على ما يرام.

من يعتقد أن الفرد لا يلعب دورًا يجب أن يذهب إلى الجحيم.

الفصل الحادى عشر

رجل من الجليد

انقضى يومان، وعدت اليوم مرة أخرى إلى حالى. أمس وأول أمس كنت قلقًا عما إذا كان سيكتشف الأمر أو لا، حتى إننى عدت أرغب فى الحديث مع الرب الرحيم. تذكرت فى داخلى أنه يجب على المرء أن يعطيه شيئًا، أى شىء! حتى ولو كان صغيرًا، فسيكون شاكرًا لكل شىء كما لو أنه شحاذ؛ فلتعطه شيئًا.

فلتعطِ أول شحاذ يقابلك خمسة تالر (نقود).

توقف! أنت تملك تالرًا واحدًا. ولكن تالرًا واحدًا يعد نقودًا كثيرة، وسوف يزداد لك أكثر. أعط كل شىء لأول شحاذ.

لذا انطلقت قلقًا فى أرجاء المدينة، ولكنى لم أقابل شحاذًا واحدًا، وكأن جهنم قد ابتلعتهم جميعًا. لا يرد هؤلاء السادة منى شيئًا.

وهذا كان أفضل؛ ففى جريدة صباح اليوم نشر خبر قصير، أن محاسبًا لقى مصرعه إثر حادث فى طريق عودته إلى المنزل؛ نتيجة لقصر نظره الشديد انزلق فى ظلمة سائدة وسقط فى قناة. وخلف أرملة حزينة وابنًا متزوجًا وابنتين غير متزوجتين.

نعم، الفرد لا يلعب دورًا.

نعم هناك عدالة كبيرة.

وسألت جريدة الصباح الجهة المختصة: متى سينتهى العمل فى سور القناة؟

نعم، متى؟

الوقت الآن بعد الظهر. قبل يومين فى مثل هذا الوقت كان النهار مضيئًا. خلال ليلة جاء الشتاء، زهور الثلج ظهرت فى النوافذ. جلست فى حجرة والدى، وأخذت أكتب خطابًا، خطابًا للآنسة التى أصبحت أختى.

كتبت: الآنسة المحترمة! أغلب الظن أنك لا تتذكرينني، ولكننى أردت أن أكتب إليك. زمن مضى كنت جنديًّا، كنت جنديًّا عن طيب خاطر.

وفى الحقيقة أننى أعرفك، فقد رأيتك، ولكننى كنت أفكر فيك، وأبحث عنك فى كل مكان.

واليوم عرفت مصيبتك، وثقى فىَّ؛ لأننى لم أنسك، ودائمًا أريد أن أساعدك بكل ما أستطيع؛ لأنى أحب العدالة.

أغلقت الخطاب واتجهت إلى الشارع حتى أرسل لها الخطاب. منذ الأمس أصبح الجو قارص البرودة. الهواء كان عبارة عن أزرق قاتم.

نعم، الآن يسود الثلج، وألقيت الخطاب فى صندوق البريد. ولم يعد هناك شيء فى يدى. يدى هى جزء من الذراع، ولن أهملها بعد ذلك ما دمت حيا، ولكن هذا الذراع لن يجعلنى أشعر بالراحة.

من يعرف، ما إذا كانت ستتسلم الخطاب؟ من يعرف، هل ستجيب عنه؟ يجب ألا تعلم مطلقًا بما صنعته من أجلها؛ لأن هذا سوف يكون خطيرًا بالنسبة لى.

النساء يثرثرن دائمًا.

وما الذى تملكه هى تجاه ذلك؟ إن الجهات المختصة لم تبنِ سورًا حول القناة.

كل الأشياء تتساوى الآن لدىَّ. لم يعد يشغل بالى، ما الذى سيحدث، ما يشغلنى هو ما ينبغى أن يكون؟ هذا فقط ما يهمنى.

إنه لحرام ألا يكون للفرد دور فى المجتمع حتى ولو كانت آخر أو أقل آنسة.

كل من يدعى عكس ذلك يجب أن يمسح أو ينتهى بالروح والجسد فيما بعد.

إن المستقبل غير واضح، وكأنه مختف فى الضباب.

والآن أرسلت خطابى، وسرت فى الشوارع.

بطيئًا أو سريعًا هذا لم أعره أى اهتمام؛ لأننى أريد أن أرتب أفكارى وما بداخلى، ولكنى كنت أجهد نفسى كثيرًا، ودائمًا أبدأ من أول أمرى. وفجأة أشعر أننى أتخلى عن نفسى تمامًا، كما لو أن القلب ضاع منى، ربما إلى غير رجعة.

كنت أعتقد مخطأ أنه بالكرة نصبح متقدمين، ولذا سرت فى طابور العسكرية.

كم كنت غبيًّا، كم كنت غبيًّا!

حتى عندما يسير بجانبك أحد دائمًا، عن اليمين وعن اليسار، ليلاً ونهارًا، مكثت أنت دائمًا مجرد شكل جليدى وحيد.

والجبال تتزايد ليلاً ونهارًا، ولكن أنت تتراجع.

أنا أنحسر نحو الداخل وأصبحت كبومة كبيرة فى النهار تكون أعمى، وبالليل لا تصيد أى شىء؛ لأنك تطير فى أماكن ليس فيها حياة.

مت جوعًا، أو التهم نفسك!

تلفت يمينًا ويسارًا.

أين أنا ذاهب فى الواقع؟

أنت بعيد عن المنزل.

استدر وعد إلى البيت!

لأنك متعب. طبيعى، لا عجب! هذا فقط كان نتيجة هذين اليومين الماضيين، وخاصة الليالى، التى لا أريدها مرة أخرى، وخصوصًا عندما يخاف منها الإنسان.

وبلا إرادة وجدتنى أبتسم.

والآن هل استقامت الحياة؟

انزلق على الجليد الموجود على الرصيف! تابع سيرك أو ابقَ قليلاً!

حتى يمكنك أن تنام أفضل.

لم أعد فى طريق منزلى، والمنازل أصبحت أقل.

عن اليمين بدأ سور حديدى، وخلفه أشجار بيضاء، وشجيرات، كبيرة وصغيرة.

هل هى حديقة؟

لا يرى فيها أى شخص، وأتنفس بعمق. رائحة الثلج تعم المكان.

والمكان هنا جميل.

ظهر أمامى باب عال، وعلقت لوحة على البوابة: مفتوح من الساعة الثامنة صباحًا حتى حلول الظلام.

وفى الحقيقة لقد حلت الظلمة، ولكن البوابة لا تزال مفتوحة. ادخل! لمع خط النجوم الفضى بوضوح، عندما كانت السماء جميعها داكنة، ولكن فى الناحية الشرقية حاجزًا من السحاب، سلسلة من السحاب الكاملة، نعم، سوف تتساقط ثلوج فى الليل مرة أخرى.

وعندما كنت أتمشى فى الحديقة، وإن لم يخطئ ظنى فى كل شىء، هناك فى الركن التالى سيأتى مكان للعب الأطفال، صحيح، هاهو بالفعل، مكانى!

لعبت هنا ذات مرة فى الرمال تذكر؟ لقد بنيت قلعة، ومدينة. أين القلعة؟ وأين المدينة؟ الرمال تكاثفت بالثلوج.

انقضى، انقضى!

أقبل عصر جديد.

جلست على أريكة ، وأغمضت عينيى.

كيف يمكن أن يكون العالم هادئًا ساكنًا.

وكيف أن بعض الأشياء تغيب أو تأتى دون إحداث صوت. على سبيل المثال الذكرى، والتى تأتى من زاوية بعيدة.

وفى الأشجار صوت تكّات الساعة، وأنعس قليلاً!

أتثاءب وأتثاءب، كما لو كانت ليلة طويلة. نعم، إنه وقت العودة للمنزل، وإلا أغلقوا عليك البوابة. اعتراني الخوف.

ما الذى تفكر فيه؟ ما هذا الذى يستدعى أن أتذكر الجملة الساخرة؟

ليس لها أى معنى.

والآن يأتى الثلج، وتعصف به الرياح فى وجهى، تؤلمنى، وتقرصنى كما لو كان نملاً يزحف على وجهى. الجو يشتد برودة.

وفجأة وجدتها، جملتى، هذه جملة ساخرة، والآن أنا أعرفها، بل أحفظها جيدًا.

فى بداية كل عصر جديد يقف الملاك فى الظلام، دون صوت، وبعينين مضيئتين، وسيوف نارية. هل مزقت زوجة قائدى الخطاب؟ أو هل وجده أى شخص؟

أناس آخرون ...

عد إلى البيت، وألا أغلقت عليك البوابة!

فقط دع عنك ذلك، دع! والآن نام لم يعد هناك نمل ولا ثلج، وأصبح الجو أكثر دفئًا.

لقد ظهرت، لقد ظهرت، كما فى كتب الأساطير.

أين أنا الآن؟ الغرفة مظلمة، وأنا جالس على الأرض. النافذة مرتفعة. أستطيع أن أنظر خارجها، فقط عندما يرفعنى أحد.

أجل، أجل. بعد الحرب لا توجد نقود، ولا فحم للتدفئة، سوف أسأل الرب الرحيم، لماذا تنشب الحروب؟

الجو بارد، وهذا ما بقى راسخ فى ذاكرتى.

انقضت الليلة، وعاد النهار ببطء. كنت مغطى تقريبًا بالثلج، ولكنى لا أتحرك.

وقدمت امرأة شابة معها طفل صغير. رآنى الطفل أولاً، وأخذ يصفق بيديه، ونادى:

انظرى يا أمى، رجل من الجليد.

نظرت الأم إلىَّ، وفتحت عينيها متعجبة.

حدقت فىَّ، وصرخت بعد ذلك: يا للهول! وأخذت الطفل بمنأى، وسمعتها تصرخ:

النجدة! النجدة!

الآن عاد الاثنان مرة أخرى، ومعهم شرطى.

انحنى ناحيتى، ونظر إلىَّ بانتباه.

نعم، لقد مات. وبلا شك تجمد من البرد. لم تستطع الأم النظر إلىَّ أكثر من ذلك، ولكن الطفل ظل ينظر إلىَّ بلا انقطاع، واستدار مرة أخرى، ونظر لى بعينيه المستديرتين قائلاً:

انظروا! انظروا!

يجلس هنا رجل من الجليد على الأريكة ، وهو جندى.

وعندما تكبر لن تنس الجنود. أليس كذلك؟

لا تنسه؟ لا تنسه!

لأنه أعطى ذراعه لشىء قذر.

وعندما تصبح أنت كبيرًا ربما تأتى أيام أخرى، وسوف يسألك أطفالك: ألم يكن هذا الجندى قاتلاً لئيمًا؟ بعد ذلك لا تسبنى أنت أيضًا.

تذكر فقط أنه لم يجد وسيلة أخرى تساعده، وكان بحق طفل عصره.

المؤلف فى سطور:
أودن فون هورفات

-ولد أودن فون هورفات فى التاسع عشر من ديسمبر عام ١٩٠١، فى مدينة سوزاكى / فيومى بالمجر. كان والده يعمل بالحقل السياسى، وانتقل فى عام ١٩٠٢ إلى مدينة بلجراد، وفى عام ١٩٠٨ انتقل إلى مدينة بودابست، وعندما انتقل والده فى عام ١٩٠٩ إلى مدينة ميونخ تركه فى مدرسة داخلية تابعة للكنيسة فى مدينة بلجراد. أرسله والده عام ١٩١٩ إلى المدرسة الثانوية فى مدينة فيينا عند أحد أخواله. وبعد حصوله على الثانوية سافر إلى مدينة ميونخ لدراسة المسرح.

-فى عام ١٩٢٠ صدر أول إنتاج أدبى له وبعد زيارة لمدينة باريس لعدة أسابيع قرر السفر والبقاء في مدينة برلين.

-وعلى مسرح أوسنر بروك عرضت له مسرحية "كتاب الرقص"، كما عرضت له مسرحية فى هامبورج عن كتاب "ثورة فى حى الريفيرا رقم ٣٠١٨"، ثم عرضت فى برلين تحت اسم "قطار الجبل".

-حصل على عقد من دار النشر "ألول اشفين" ككاتب حر فى عام ١٩٢٩.

-ظهرت أول قصة طويلة له فى عام ١٩٣٠، تحت اسم "المتحذلق الأبدى". وفى عام ١٩٣١ عرضت له فى برلين مسرحية "ليلة إيطالية".

- حصل مع الكاتبة أركا رجر على جائزة كليست للأدب؛ بناء على ترشيح من الأديب كارل إتسيكر، وعُرض له فى ذاك العام أيضًا مسرحية "قصص من الغابات فى فيينا"، أما مسرحية "تشمير وكارولينا"؛ فقد عرضت فى مدينة ليبزيج، ثم بعد ذلك فى مدينة برلين.

-فى عام ١٩٣٣ اضطر الكاتب لترك ألمانيا والعودة إلى بودابست، بعد أن مر على مدينة سالزبورج، حتى يحافظ على جنسيته المجرية؛ حيث إن طلبه للحصول على الجنسية الألمانية قد رفض أكثر من مرة.

-فى عام ١٩٣٤ عاد إلى برلين؛ لتحضير فيلم سينمائى، وفى العام نفسه عُرضت له فى مدينة زيورخ مسرحية باسم "هنا وهناك".

-أقام فى مدينة فيينا إقامة دائمة، وعرضت له فيها مسرحيات: "الضرب فى الحائط بالرأس"، و"الحب الواجب والأمل". وفى عام ١٩٣٧ عُرضت له فى فيينا مسرحيات: "حراس السماء" و"فيجرو يطلب الطلاق"،

و"قرية بلا رجال"، ثم عرضت له مسرحية "يوم القيامة" فى براغ.

– ظهرت له قصتنا التى تُرجمت إلى ثمانى لغات وهى قصة "شباب بلا إيمان" عن دار نشر دولنج فى مدينة أمستردام، وفى عام ١٩٣٨ ظهرت له قصة طويلة تحت اسم "طفل وقتنا هذا"

– بعد دخول جيوش (هتلر) النمسا، ترك هورفات فيينا وعاد إلى بودابست، ثم سافر فى رحلة طويلة إلى باريس، عبر مدينة براغ وميلانو وزيوريخ وأمستردام.

– فى يوم ١ يونيو ١٩٣٨، وهو فى طريق عودته من السينما إلى الفندق، الذى يسكن فيه، وقع عليه فرع شجرة من أشجار أبو فروة فحطم رأسه ومات فى الحال، تاركًا خلفه كمًّا كبيرًا من المسرحيات والقصص، التى تعرض حتى اليوم على مسارح ألمانيا والنمسا وسويسرا.

– جمعت أعماله في أربعة مجلدات، تضم الأعمال التالية:

المجلد الأول: يحتوى على قصص شعبية، وتمثيليات:

١ – ثورة فى الريفيرا رقم ٣٠١٨.

٢ – قطار الجبل.

٣ – ليلة إيطالية.

٤ – قصص من الغابات فى فيينا.

٥ – كاشمير وكارولين.
٦ – الإيمان بالحب والأمل.
٧ – القتل فى حارة الزنوج.
٨ – صلاح الدين أو الجيش الأسود.
٩ – يوم القيامة.
١٠ – دون جوان يعود من الحرب.

المجلد الثانى: أعمال الكوميديا:
١ – المناظر الجميلة.
٢ – حول المؤتمر.

المجلد الثالث: الشعر والنثر والقصص:
١ – كتاب الرقص.
٢ – قصص خيالية رياضية.
٣ – حكايات ومسودات.
٤ – شباب بلا إيمان.
٥ – طفل عصرنا.

المجلد الرابع: خطط مستقبلية ومتنوعات وملخصات:
١ – أسئلة ومتنوعات.
٢ – نظريات وخطابات وأبيات شعرية.
٣ – المتحذلق الأبدى.

قام بنشر هذه المجلدات الأربعة الكاتبة تراوجوت كريشكا وديتر هيلدبرانت.

المترجم فى سطور:

حسن على محمود رمضان

-أستاذ مساعد بقسم اللغة الألمانية كلية اللغات والترجمة- جامعة الأزهر.

-ولد فى القاهرة، وتلقى تعليمه فى مدارس حى السيدة زينب بالقاهرة، وبعد حصوله على الثانوية العامة عام ١٩٧٢ التحق بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر وتخرج فيها عام ١٩٧٧، وعُين مدرسًا للغة فيها ثم حصل على درجة الماجستير فى اللغة الألمانية وآدابها عام ١٩٨٣، وسافر فى أكتوبر ١٩٨٦ فى بعثة علمية إلى ألمانيا الغربية (فى ذلك الوقت) للدراسة والحصول على درجة الدكتوراه من جامعة كاسل بمقاطعة هسن.

-حصل عام ١٩٩٢ على درجة الدكتوراه من جامعة كاسل/ ألمانيا، وعاد ليُعين مدرسًا بقسم اللغة الألمانية بكلية اللغات والترجمة.

-يعمل حاليًا بالتدريس فى عدة جامعات حكومية، وخاصة فى أنحاء جمهورية مصر العربية.

- له عدة مؤلفات فى مجال اللغة كما أشرف ويشرف على العديد من رسائل الماجستير فى جامعات الأزهر والمنيا والمنوفية وغيرها من الجامعات.

التصحيح اللغوى: صفاء فتحى

الإشراف الفنى: حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف: شريف مكى



أنا الجندى رواية "طفل عصرنا" - وهذا هو العنوان الأصلى والذى استبدلته بعنوان أقرب للقصة والأحداث ألا وهو "أنا الجندى" - وهى من أواخر ما كتب (هورفات).

"عندما تركت المدرسة أصبحت بلا عمل، وكنت أود أن أعمل فى مطبعة؛ حيث إنى أهوى الماكينات الكبيرة العملاقة التى تطبع الصحف، وتعمل فى الصباح وفى منتصف النهار وفى المساء، بيد أنه لم يكن فى وسعى فعل أى شىء. لم أستطع حتى أن أتعلم الطباعة فى أى من ضواحى المدينة، فضلاً عن استحالة ذلك فى وسط المدينة، حتى لكأنه خُيل إلىّ أن تلك الماكينات الكبيرة تقول لى وهى تبتسم: "آه إن لدينا من البشر أكثر مما نحتاج" ثم أردفت مبتسمة أيضًا: "أخرجنا من رأسك!"

وأصبحت بعد ذلك أستجدى الإحسان، بدءًا من المؤسسات الحكومية وانتهاء ببعض من أعرفهم.

وتعتبر هذه الرواية من روائع القصص؛ لأنها تتغلغل فى الحالة الأخلاقية التى تسود العالم فى هذا الزمن. وأوصى (هرمان هسه) صديقه (ألفريد كوبن) بالبحث عن هذه القصة وقراءتها.

يتميز أسلوب (هورفات) بالسهولة، ولكنه فى الوقت نفسه يكشف عن الخبايا السياسية وأثرها فى المجتمع.



الإبداع القصصى